أخبار المتقي لله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي: قد فرغنا من عمل أخبار الراضي بالله وذكر وفاته، وكانت ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، ودفن في التربة ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت منه.

في هذه الليلة دخل أحمد بن علي الكوفي من واسط إلى بغداد. وهو كاتب الأمير أبي الحسين بجكم ومدبر أمر الدولة. وكان محمد بن ينال الترجمان قد عاد من الأنبار، فولي أبو القاسم سلامة أمر الدار ورسم بحجبة من يستخلف، وتقدم إليه بحفظ الدار، فولي ذلك أبو الحسين القشوري فضبط أحسن ضبط؛ ختم على دواوين المستخلصة وعلى جميع الخزائن، ووكل بذكي حاجب الراضي وبراغب خادمه أحسن توكيل، أراهما أنه يريدهما لمعاونته، وكان معهما في مكان واحد إلى أن تسلم منه الأمر.

وذكر للخلافة جماعة فزعموا أن بعضهم أبى والتدبير إلى غيره، وكان أبو الحسين أحمد بن محمد بن ميمون بن هارون الأنباري يكتب للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله، وأمه أم ولد. فسعى له في الأمر، وتضمن عنه[1] كلما يراد منه، ووصفه بتوق وصلاح، وأنه لا يشرب النبيذ، وشاع له هذا في الناس، وكتب به إلى بجكم، فكتب أن يعقد الأمر له بعد أن يجمع مشايخ بني هاشم من ولد علي والعباس صلوات الله عليهما، ومشايخ الكتاب، ووجوه العدول، والتجار؛ ليقع إجماعهم عليه، ولا يكون هو المنفرد بهذا الرأي، ولا

---

(١) راجع اللوحة الشمسية المنشورة ضمن هذا القسم.

المختار له دونهم.

فوقف الأمر بهذا السبب أيامًا إلى يوم الأربعاء لعشر ليالٍ بقين من شهر ربيع الأول؛ فقال لي البرجمالي في عشية الثلاثاء: اختر للخليفة اسمًا، فكتبت له رقعة فيها ثلاثون اسمًا، وكتبت مثلها، ودفعت واحدة إليه، وأنفذت الأخرى إلى أحمد بن محمد بن ميمون، وضمنا لي إخراج حق التسمية، وما وفيا لي من ذلك بقليل ولا كثير، ولا عوضاني ولا شفعا لي ولا أذكراني.

واجتمع الناس في يوم الأربعاء لعشر ليال بقين منه في دار الأمير بجكم، وحضر أبو الحسن علي بن عيسى تاج الدولة وجمالها، وشيخ الإسلام، وحضر الكرخي محمد بن القاسم، وأبو بكر عثمان بن سعيد الصيرفي صاحب ديوان الجيش، وتخلى أحمد بن علي الكوفي في حجرة في الدار مملوءة بوجوه الناس، فوجه إلى جماعة من الأشراف فوصلوا إليه مع علي بن عيسى فخوطبوا، فكان أول من تكلم وتبع الناس قوله أبا الحسن علي بن عيسى؛ فإنه قال: الله مطلع على النيات، عالم بالخفيات، وليس لنا إلا الظاهر، ليس فيمن أسمي أحد يبلغنا عنه ما يبلغنا عن أبي إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله، فإن كنتم عازمين عليه فاستخيروا الله جل وعز، وأمضوا أمره.

فقال له أحمد بن علي الكوفي: إن الأمير أعزه الله أمر أن يسمع منك، وأن يقبل رأيك، ونحن نعمل على هذا. فقال جميع من حضر مثل قوله. فمضى ابن ميمون والترجمان؛ ليحدراه من داره التي بحضرة دار البطيخ، فدخلا إليه وهنآه وأخرجاه، فسار في الماء إلى الحسنى دار الخلافة. والناس حوله يدعون له إلى أن صعد.

وقد نظر في رقعة الأسامي فاختار منها المتقي لله، وصعد إلى رواق الخورنق، فصلى ركعتين على الأرض، ثم جلس على السرير، وبايعه الناس

باقي يومه وأيامًا بعد ذلك، وكل من بايعه أحلف على طاعته ونصيحته، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه.

ودخلتُ من الغد أنا وجماعة من المرسومين بالمجالسة، فبايعناه، وحجبه أبو القاسم سلامة أخو نجاح الطولوني، فوقف موضع الوزير عند ابن ميمون، فاستأذنته في الإنشاد فأذن فأنشدته:

شَهِيداهُ إنْ لَمْ تَظْلِمِيهِ نُحُولُ ... وَدَمْعٌ لَهُ فِي وَجْنَتَيْهِ هُمُولُ

- وهي قصيدة كنتُ مدحت بها المكتفي بالله، فلما دخلتُ قال لي ابن ميمون: أما عملت شعرًا؟ وما كنت عملت - فقلت أعمل الساعة، فقلبت مواضع القصيدة وكتبتها:

أَيَرْضِيكِ أَنْ تَضْنِي فَدامَ لَكِ الرِّضا ... سَيَقْصُرُ عَنْهُ حاسِدٌ وَعَذُولُ

تَقُولُ وَقَدْ أَفْنَى هَواها تَصَبُّرِي ... فَوَجْدِي عَلَى طُولِ الزَّمانِ يَطُولُ

تَجاوَزْتَ فِي شَكْوَى الهَوى كُنْهَ قَدْرِهِ ... وَما هُوَ إلاَّ زَفْرَةٌ وَغَلِيلُ

وَما أَرِقَتْ عَيْنٌ لَها فِيهِ لَيْلَةً ... فَخَفَّ عَلَيْها الحُبُّ وَهوَ ثَقِيلُ

وَجَدْتِ إلَى قَتْلِي سَبِيلًا وَلَيْسَ لِي ... إلى الصَّبْرِ وَالسُّلْوانِ عَنْكِ سَبِيلُ

فَدُونَكِ نَفْسِي فَاجْعَلِي تُحْفَةَ الرَّدَى ... حُشاشَتَها إذْ حانَ مِنْكِ رَحِيلُ

وَيَكْبُرُ مَنْ يُلْقِي إلَيْكِ بِوُدِّهِ ... وإنَّ هَوانِي فِيكُمُ لَقَلِيلُ

وما ازدادَ إلاَّ صِحَّةً بَعْدِكِ الهَوى ... وَلكِنَّ قَلْبِي ما نَأَيْتِ عَلِيلُ

لَعَمْرُكِ لا أَتْبَعْتُ ما فاتَ بِالأَسَى ... وَرَأْيُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ جَمِيلُ

هُوَ الدِّينُ وَالدُّنْيا فَلَيْسَ لِطالِبٍ ... وَلا راغِبٍ عَمَّا لَدَيْهِ مُمِيلُ

سَمِيَّ خَلِيلِ اللهِ لا زِلْتَ مُقْبِلًا ... عَلَيْكَ بِنُعْمى ذِي الجَلالِ قَبُولُ

وَقَاكَ الَّذِي سَمَّاكَ مُتَّقِيًا لَهُ ... فَأَنْتَ عِمَادُ الدِّينِ لَيْسَ يَزُولُ

أُدِيلَ بِكَ الإِسْلامُ فَازْدَادَ عِزَّةً ... فَأَنْتَ مِنَ الدَّهْرِ الغَشُومِ تُدِيلُ

مُطِيعُكَ أَنَّى حَلَّ فَالْعِزُّ جَارُهُ ... وَعَاصِيكَ لَوْ نَالَ النُّجُومَ ذَلِيلُ

مَدَدتَ عَلى الإِسْلامِ أَكْنَافَ نِعْمَةٍ ... لأَعْطَافِهَا ظِلٌّ عَلَيْهِ ظَلِيلُ

فَأَضْحَتْ عُيُونُ الْعَدْلِ تَسْمُوا بِلحْظِهَا ... وأَصْبَحَ طَرْفُ الجَوْرِ وَهْوَ كَلِيلُ

أَضَاءَتْ بِكَ الدُّنْيَا فَأَشْرَقَ نُورُهَا ... وَأَنْتَ الَّذِي يُذْكِي سَنَاهُ أُفُولُ

فَكُلُّ عَلاءٍ إِنْ سَمَوْتَ مُقَصِّرٌ ... وَكُلُّ فَخَارٍ إِنْ فَخَرْتَ ضَئِيلُ

وكُلُّ سَنَاءٍ مِنْ طَرِيفٍ وتَالِدٍ ... إِلَيْكَ مُشِيرٌ بَلْ عَلَيْكَ دَلِيلُ .

ولَوْلا بَنُو العَبَّاسِ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... لأَصْبَحَ نُورُ الْحَقِّ فِيهِ خُمُولُ

لَكُمْ جَبَلا اللهِ اللَّذانِ اصْطَفاهُما ... يَقُومانِ بالإِسْلامِ حِينَ يَمِيلُ

نُبُوَّتُهُ ثُمَّ الخِلافَةُ بَعْدَهَا ... وما هُما حَتَّى اللِّقاءِ حَوِيلُ

أَتَتْكَ اخْتِيَارًا لاَ اخْتِلابًا خِلافَةٌ ... لَكَ اللهُ فِيهَا حافِظٌ وَوَكِيلُ

حَباكَ بِها مَنْ صانَها لَكَ إِنَّهُ ... بِإِتْمامِ نُعْماهُ عَلَيْكَ كَفِيلُ

وَلَوْ حِدْتَ عَنْها قادَها بِزِمَامِها ... إِلَيْكَ اصْطِفاءُ اللهِ وَهْيَ نَزِيلُ

نَوَتْ حَيْثُ أَثْواها المَلِيكُ بِحُكمِهِ ... وَلَيْسَ لِمَا أَثْوى المَلِيكُ حَوِيلُ

وَلا زال مَوْصُولًا إِلَيْكَ حَنِينُها ... كَما حَنَّ فِي إِثْرِ الخَلِيلِ خَلِيلُ

لِيَهْنِيكَ يا خَيْرَ البَرِيَّةِ ناصِحٌ ... لَهُ خَطَرٌ فِي العالَمِينَ جَلِيلُ

لَقَدْ شَدَّ أَزْرَ الدِّينِ مَوْلاكَ بَجْكَمٌ ... بِهِ يَتَسامى مُلْكُكُمْ وَيَطُولُ

هُوَ الحَتْفُ مَصْبُوبًا عَلَى كُلِّ ناكِثٍ ... يَظَلُّ بِهِ أَيْدِي الشَّقاءِ نُحُولُ

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنْعِمِينَ مُعانِدٌ ... وَلَيْسَ لَهُ فِي النَّاصِحِينَ عَدِيلُ
فَلا زِلْتَ مَحْرُوسًا لَكَ الْمُلْكُ دائمًا ... بَقاؤُكَ ما واصى الغُدُوَّ أَصِيلُ
لِعَبْدِكَ إذْ سَمَّاكَ رَسْمٌ مُشَهَّرٌ ... بِهِ يَتَسامى فِي الْوَرَى وَيَصُولُ
ومِثْلُكَ أَعْطى رَسْمَهُ مُتَنَوِّلًا ... فَما زِلْتَ تُعْطِي مُنْعِمًا وَتُنِيلُ

فجعلت إذكاري له تسميتي آخر القصيدة ليفهمه، فوالله ما وصل إلي منه عاجل ولا آجل شيئًا، حتى انقضت أيام ولايته.

وليس هذا الشعر كجودة أشعاري في الراضي بالله؛ لأن ذلك كان أعلم الناس بالشعر، فكنت أتنخل له الألفاظ، وأختار علوي الكلام.

وولي الخلافة المتقي لله وجعل حاجبه سلامة، وكان سليمان بن الحسن المرسوم بالوزارة. وأمره المتقي لله أن يركب إليه فركب مرات، ثم إنه ارتعد يومًا وهو واقف بين يديه ونالته خطرة من رطوبة، فخرج يهادى بين اثنين ولزم منزله. وعقد المتقي لله لبجكم لواء، وجعله أمير الأمراء ونفذ به سعيد بن خفيف الحاجب إلى واسط، وخرج أمر بجكم أن يلي أبو عبد الله محمد بن أبي موسى قضاء الشرقية، والجانب الشرقي من مدينة السلام، وكانا إلى أبي نصر يوسف بن عمر وإلى أخيه.

ثم وجه السلطان إلى أبي نصر: قد أقررت على عملك. فحكم في آخر شهر ربيع الآخر وعرف منه سداد ورشد، ووقع في القضاء تخليط بسبب أبي عبد الله بن أبي موسى الهاشمي، وشهادة العدول له، ثم عليه شهادتان متضادتان، فسفر في إبطال أمر أبي نصر فعزل، وولي أبو عبد الله محمد بن عيسى الضرير قضاء الجانب الشرقي والشرقية، وولي أبو طاهر بن نصر قضاء المدينة، وخلع عليهما يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الآخرة، وجلسا وقرآ عهدهما وحكما. وصرف ابن بريه عن الصلاة بالجامع الغربي، وولي ذلك حمزة لتسع

بقين من شهر ربيع الآخر.

وقرئ كتاب عن الخليفة يأمر الناس بالاستسقاء، فخرج الناس يوم الاثنين لست بقين من شهر ربيع الآخر أهل الجانب الشرقي إلى المصلى، وأهل الجانب الغربي إلى ميدان الأشنان، ومعهم حمزة الإمام.

وحكي أن المتقي لله ما زال يصلي في داره على الأرض، ويلصق خده بالتراب ويدعو.

وخرج الأمر بأن يصلي أحمد بن الفضل بمسجد براثا، وجعل فيه منبر مكتوب عليه: ((مما أمر به الرشيد سنة اثنتين وتسعين ومائة، على يد الفضل بن الربيع)) وجعلت الصلاة بالجانب الرقي إلى أحمد بن الفضل أيضا، وكان يصلي هو بالناس فيه، ويصلي ابنه بمسجد براثا، ثم صرف أحمد بن الفضل بن عبد الملك عن مسجد الرصافة بأبي الحسن بن عبد العزيز.

وكان من أول الحوادث أنه قطع على القافلة الخارجة من مدينة السلام إلى خراسان في جمادى الأولى، قطع عليها أكراد الشادنجان، وكان لؤلؤ يحميها ومعه جماعة من الأتراك، فكثر عليه الأكراد، ودام المطر، فلم تعمل قسي الأتراك شيئًا، وإنما هي عدتهم، فتمكن الأكراد منهم بالسيوف والرماح فملكوها كلها، وكان فيها من العين والورق ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار، ومن الأمتعة ما قيمتها نحو ذلك، وكان أكثر المال لأصحاب بجكم أنفذوه إلى بلدانهم بخراسان.

ولقد حدثني بعض من يخبر الأمر، وهو المعروف بعدل حاجب بجكم أنه كان له وحده ثلاثون

ألف دينار، ولسائر قواده أموال جليلة.

وحدثني من أثق به من التجار: أن تجرًا من قطيعة الربيع حمل أمتعة في

هذه القافلة لزمه لكرى أحماله نحو ألفي دينار، فما ظنك بمتاع هذا مبلغ كرائه! وكم تظن أن قيمته تبلغ؟

وإنما كثر المال فيها والمتاع لأن قومًا من مياسير التجار خرجوا بجميع أملاكهم هربًا من جور تكينك التركي صاحب أمر بجكم كله، فإنه أفرط في ذلك وأسرف وبجكم لا يعلم بما يفعله بالناس، فلما صح ذلك عنده وجه بأبي حامد الطالقاني من واسط حتى قبض عليه، فلما وصل إليه حبسه وأخذ منه مالًا، وكان بجكم يزعم أنه قد فقد مما كان عنده أموالًا جليلة.

ولما رأيت أنا أن المتقي لله لا يريد جليسًا، وما سمع بخليفة قد قال: لا أريد جليسًا، أنا أجالس المصحف، أفتراه ظن أن مجالسة المصحف خص به دون آبائه وأعمامه الخلفاء. وكان وحده دونهم، أو أن هذا الرأي غمض عليهم وفطن هو وحده له؟ فاستأذنت في الخروج فأذن لي.

ولقد كنا وقوفًا بين يدي المتقي فقال لنا بعض الخدم: ليس هذا مثل الراضي، هذا لا يريد الجلساء، فقلت لهم: لئن كان هذا الأمر كما زعمتم فإنه رديء لنا ورديء لكم، وأعظم الأمر أنه رديء على الخليفة وعائد بخلاف ما يهواه ويقدره، فما زال بعض الخدم يقصدني، ويقول لي: كان الأمر كما قلت لنا.

ولما وصلت إلى واسط دخلت إلى بجكم فأكرمني وقربني وأمر أن يؤخذ لي منزل بقربه، وأدخلني في جملة ندمائه وذوي أنسه، ووصلني سرًّا وعلانية، وكان ربما وجه إلي بالعشيات إذا خلا، فأدخلني أنا وقاضي واسط المعروف بالعسكري، فربما شاورنا في الشيء.

وأنا أجمل وصفه ووصف حسن أخلاقه وجميل عشرته وعلو همته ومحبته، لأن تبقى آثاره بعده، كما بقيت آثار أجلاء الملوك. فجملة أمره أن كان عقله أكثر شيء فيه، فسأله جماعة من أهل واسط أن يأمرني بالجلوس لهم في المسجد

الجامع يوم الجمعة، فتقدم إليَّ بذلك، فقلت له: قد جعلت لهم مجلسين في مسجد على بابي في كل أسبوع، وأنا ما جلست ببغداد وهي بلدي ومولدي بعد في المسجد الجامع! فقال لي: إني أحب أهل واسط وقد أحبوني وأنا حريص على عمران بلدهم وتبليغهم جميع ما يحبونه، فاجلس لهم في الجامع، ففعلت.

وكان ربما شغلوني عن خدمته والأوقات التي يريدني فيها لمواكلته ومجالسته، وكنا نخدمه في كل يوم بلا نوبة، فجعل لنا من أجل مجلس الجمعة يومين في الأسبوع: الثلاثاء والجمعة، نجلس فيهما في بيوتنا، فكنت مباركًا في ذلك على الجماعة المجالسين له.

ولقد قال يومًا وكان يفهم العربية كلها إذا خوطب، ويحسن الجواب، ولكنه كان يقول: أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطئ في لفظي، والخطأ من الرئيس قبيح،؛ فلذلك أدع الكلام. فقال لي يومًا: أتدري ما كتب به إلي بعض أصحاب الأخبار. وما رأيتهم قط مع أحد أكثر منهم معه، ففزعت والله، وقلت: وما هو أيد الله الأمير؟ قال: طبتك فلما قمت من المسجد، قالوا: بعدك أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا، أفتراه يقرأ عليه شعرًا أو نحوًا ويسمع من الحديث!

وقد ذهب عليهم أمري، أنا إنسان وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب، أحب ألا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبتي وتحت اصطناعي، وبين يدي لا يفارقني، كلامًا يشبه هذا أو هذا معناه.

فما زلنا في أرغد عيش وأحسن حال حتى قدم واسط بعض الجلساء طالبًا خدمته، فكرهت ذلك من جهات. فوصل إليه وأهدى إليه أشياء يتقرب بها، وكانت كراهتي له أن يجتمع الجلساء، فيقال له في ذلك، ووافق قدومه قدوم أحمد بن علي الكوفي واسط بعده بيال اجتمع له، فقال له: ما أحب أن يكون

جلساء الخلافة عندك، الصواب: أن يكونوا على بابه. فدعاني عشية، وقال لي قد أجريت عليك ألفي درهم في أيامكم وهي خمسة وأربعون يومًا، وكذلك على إسحاق بن المعتمد وابن حمدون وعلي بن هارون، وهو الذي كان قدم عليه، وقد حضر خروجي إلى المذار[1] وقد أمرت لكم بمائة دينار مائة دينار. وهذه رقعة لك بألفي درهم صلة إذا وصلت إلى بيتك إلى بغداد فأوصلها إلى أبي عبد الله وخذها من وقتك، فإنه لا يعطيكم الرزق إلا بعد مضي أيامكم، ولا تقم أكثر من شهر، أو حتى تقبض رزقك حتى تعود إلي، وجئني بخطبة أمير المؤمنين معك.

وكان القاضي العسكري قرأها عليه منتخبة غير تامة، ثم قال: وأنا بعد هذا أحسن إلى جماعتكم حتى لا تفقدوا بقاء الراضي، فقلت له: فما بال العروضي والبربريين وهم في جملتنا؟ فقال لي: إذا قدمت بغداد فأجري عليهم، وكان معه كتاب قد أمر بكتبه إلى الكوفي بمبلغ أرزاقنا. فقلت له: قد كرهت أن يكون الجلساء سبعة، فاحمل أرزاق أربعة واترك ثلاثة، فدفع الكتاب إلى القاسم بن أبي القاسم الخواري وكان يكتب بين يديه، وقال له: ادفع الكتاب إلى ابن المنجم، فدفعه إليه فكان معه وخرج يوم الأربعاء وقال لي: متى تخرج؟ قلت: يوم السبت فمضى إلى باذبين[2] فبات بها ليلة الخميس.

ودفع أبو زكريا يحيى بن سعيد السوسي كتابه في ليلة الجمعة بأنه مقيم. وأن الخبر ورد عليه بهزيمة بني البريدي من المذار، وأخذ أسرى من أصحابه، وقال له: أعط الكتاب للصولي حتى يقرأه على الناس يوم الجمعة في مجلسه، فدفعه فإلي، ففعلت ما أمر، وأقمت مستمليًا لي على شيء عال حتى قرأه، فكر

---

(١) المذار: بين واسط والبصرة على أربعة أيام من البصرة.

(٢) باذبين: قرية كبيرة تحت واسط على ضفة دجلة.

ضجيج الناس بالدعاء له، وظنوا أنه سيرجع ونووا صدقات كثيرة، ثم ورد الخبر بالترحل عن باذبين يوم الجمعة.

وخرجت أنا من واسط يوم السبت، وقدمت بغداد يوم الجمعة، وبكرت يوم السبت لأوصل الرقعة التي معي إلى أحمد بن علي الكوفي فوجدته مضطربًا لطير سقط في يوم الجمعة يخبر بأن الأمير قتله بعض الأكراد غرة، فبطل أمرنا في الرزق وغيره، وقوي الخبر. وكان أحمد بن علي قد ابتدأ في مطالبة الناس بالخراج في النيروز الأول، فخرج أمر بجكم بتأخير الافتتاح إلى النوروز المعتضدي.

وكنا بين يدي بجكم حتى ورد الخبر عليه بالقطع على القافلة بطريق خراسان، فامتنع من الطعام غمًّا بذلك واضطرب له، وقال: لو ساغ لي أن أسير أنا في طلبهم لسرت، وأمر الترجمان بأن يخرج في طلبهم وقوي أمره فخرج، فما صنع شيئًا. ورجع في النصف من رجب بأديم كان وجد مطروحًا وحمير، فقال بجكم لما بلغه: هو رجل جيد لغير الحرب.

وانحدر الترجمان من بغداد إلى واسط لعشر بقين من رجب فوافاها وقد شخص إلى المذار. وورد الخبر بإيقاع صاحب خراسان بأخي مرداويج وهزيمته إياه. وقد كان ورد على بجكم قتل ما كان، فاحتجب ثلاثة أيام عنا غمًّا بما ظهر، فقلنا له في ذلك، فقال: هو مولاي، كنت أقدر أن يرى ما صرت إليه، ثم أجلسه في مكاني وأكون معه وما رأيت فارسًا مثله قط.

ولما صح قتل بجكم حمل أحمد بن علي الكوفي مالًا كان قد اجتمع عنده إلى المتقي لله، ووجد المتقي في دار بجكم أموالًا كثيرة مدفونة في مواضع منها، حول البستان في خوابي ودنان كثيرة، فاستخرجها وحملها إليه. ووجد القاهر، وكان فيما زعم يعذب في أيام الراضي، فصرفه إلى منزله، وصرف أبا جعفر

محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى منزله، بعد أن أدى مائتي ألف دينار، ولم يبق له شيء إلا باعه وتمحل واقترض.

وظهر سعيد بن عمرو بن سنكلا، وكان كاتب الراضي فصادره أحمد بن علي على خمسين ألف دينار، وأحسن معاملته وكافأه؛ لأن ابن سنكلا كان أحسن إليه حين صودر، إلا أنّا كنا نسمع بجكم يعجب من هذه المصادرة ويغتاظ إذا ذكرها، ويقول أقوالًا لا أحب إعادتها.

وظهر علي بن يعقوب، وكان يكتب لذكي الحاجب فصودر على سبعين ألف دينار.

وكتب المتقي لله بإحدار تركة بجكم والمصير بها إليه وبالأتراك، وأن تخلى عن الديلم فلا يأتي منهم بأحد، ففعل ذلك. فانحاز الديلم إلى عدل الحاجب كان لبجكم وصاروا معه، واحتال تكينك حتى قبض على بعض الخزائن وعلى الترجمان وأقبل نحو بغداد. وورد من قبل الحسن بن عبد الله مال إلى بجكم، فحمله الكوفي إلى المتقي لله، وأطلق المتقي لله للفرسان الذين بالحضرة رزقة واخدة، وللرجال رزقتين.

وهاج الحنبلية عند موت بجكم، فقالوا: طهرت السنة، وحاولوا هدم مسجد براثا، والإيقاع بالضرابين وأهل درب عون. فأخرج توقيع من المتقي لله بأخذ قوم من الحنبلية، فأُخذوا وضربوا ونودي عليهم، وأمر ابن جعفر الخياط بحفظ مسجد براثا، وأن يضرب عنق من تعرض لهدمه وكان الترجمان وجد تكينك مقيدًا في دار بجكم بواسط فخلاه. فاحتال عليه تكينك حتى أخذه فكتب السلطان إلى تكينك في أمره، فولي إمارة بغداد، ونادى ببراءة الذمة ممن تعرض لأحد من الجند الواردين من واسط، فدخل الجند بغداد في أول شعبان.

ودخل تكينك ومعه مال في صناديق محمول على خمسة وعشرين جملًا. فسلمه إلى السلطان ونزل دار علي بن هارون اليهودي الجهبذ على قرن الصراة، بلصق دار المادراني وإبراهيم بن أيوب النصراني، وخلع على جماعة من قواد الأتراك، وأخر تكينك إلى يوم بعد ذلك، وطالب الأتراك ببيعة، فقيل لهم: ليس إلا رزقة، فقالوا: لا نرضى إلا ببيعة ورزقة.

وخاصم توزون أبا الأسوار قائد الديلم، فلما رأى الديلم ذلك اجتمعوا وكثر عددهم، وأمروا عليهم أبا شجاع جورغيز بن القاراهي. وورد الخبر بدخول أبي الحسين علي بن محمد البريدي واسط وخلع على أبي الحسين أحمد بن محمد بن ميمون للوزارة لعشر خلون من شعبان. وجلس أحمد بن علي الكوفي بين يديه، وكان يكتب على رقاعه إليه عنده أحمد بن علي.

ووجه السلطان بمن يقبض على تكينك في داره، وكان الخبر قد وقع إليه فخرج على الظهر وركب إلى واسط إلى ابن البريدي، وأفلت معه مال كثير.

ووجه بأبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد إلى البريديين برسالة وقد وصلوا إلى واسط، ووصل تكينك إلى البريديين بواسط، فأكرموه وقودوه، ولحق الجند بهم واستفحل أمرهم. وخلع على أبي النصر يوسف بن عمر لقضاء بغداد يوم الاثنين لست بقين من شعبان، واشترط ألا يقبل أصحاب السيوف، ولا يقبل في حكم شفاعة، ولا يركب إلا إلى دار الخليفة ودار وزيره فقط.

وخرج سلامة الحاجب وقواد الأتراك معه إلى الزعفرانية؛ لقصد البريديين ومحاربتهم، وذلك يوم الثلاثاء لثماني ليال بقين من شعبان ومعه الترجمان، فأحس سلامة منهم بغدر ومكيدة فاستتر، ومضى وجوه الأتراك إلى البريديين بواسط، وبعضهم إلى الحسن بن عبد الله.

وخلع على أحمد بن إسحاق الخرقي، وولي قضاء مصر والشامات والحرمين، ومر في الشارع والجيش معه؛ لاختصاص كان له بالمتقي لله قبل الخلافة.

ووافى البريديان: أبو عبد الله وأبو الحسين، ومعهما أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، وكاتب الخليفة عنهما بسمعهما وطاعتهما، وأنهما جاءا ليصلح إليه أموره كلها بخدمتهما له، ثم نزلوا الشفيعي يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان، ومعهما جيش عظيم في الظهر والماء، ولقيهما الناس مسلمين وظهر الناس جميعًا فلم يستتر إلا محمد بن القاسم الكرخي وسلامة الحاجب وابنه وأحمد بن علي الكوفي، وأشار البريديان على المتقي لله أن يستحجب غلامه المعروف بابن خزري ففعل ذلك.

وطلب أبو عبد الله البريدي من الخليفة مالًا لرجاله فوجه إليه بمائة ألف وخمسين ألف دينار، وسفر بينهما في ذلك ابن ميمون الوزير وأحمد بن عبد الله بن إسحاق القاضي، وأبو العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني، وكان هذا حين نزل أبو عبد الله النجمي ونزل أبو الحسين دار مؤنس المظفر، وما زال يستزيد من الخليفة مالًا لرجاله حتى وجه إليه بتتمة أربعمائة ألف دينار. وصرف البريدي عمال الكوفي، وولي عماله. ووكل أبو عبد الله بن البريدي بابن ميمون الوزير في داره بالنجمي توكيلًا جميلًا، وأعلمه أن القواد لم يرضوا به وزيرًا وأرادوا الفتك به، فمنعهم من ذلك، واعتقله إشفاقًا عليه.

وولي أبو عبد الله البريدي الوزارة فأمر بمحاسبة ابن ميمون فوجده قد اختان وضيع فصالحه على خمسين ألف دينار بحساب وموافقه، ورخصت الأسعار.

ونبل الترجمان عند البريدي؛ وذاك أنه هو الذي فض عسكر الزعفرانية،

وأعمل الحيلة على الحاجب سلامة حتى استتر، وكاتب البريدي بذلك فجعله الترجمان بينه وبين الأتراك والديلم وخص به. وحدر أبو الحسين أحمد بن محمد بن ميمون إلى واسط لينظر في الأعمال وهرب قوم من الأتراك إلى الموصل فوظفوا على أهل تكريت مالًا عظيمًا، تجاوز مائة ألف دينار، فلقوا منهم عنتًا وأغرقوا زواريق الدقيق.

وزوج الوزير البريدي ابنته من عبد الواحد أبي منصور بن المتقي لله، وركب إليه إلى النجمي فنثر عليه دنانير كثيرة، يقال: إنها كانت بدرة، وقيل: خمسة آلاف دينار ومائة ألف درهم، وأنشدت للوزير في عشية ذلك اليوم:

قُلْ لِخَيْرِ الكُفَاةِ أَحْمَدَ أعلى الْـ ... ـخَلْقِ جُودًا وَأَعْظَمِ النَّاسِ قَدْرا

والَّذِي يَعْشَقُ المَكَارِمَ وَالـ ... ـمَجْدَ وَيَشْرِي بالمالِ حَمْدًا وشُكْرَا

مَا رَأَى النَاسُ بالْوَزِيرِ الْبُرَيْـ ... ـدِي كَذَا الْيَوْمِ حُسْنًا وَفَخْرَا

أَمْطَرَتْنَا السَّمَاءُ فِيهِ بِيُمْنٍ ... وَسَمَاحٍ مِنْهُ لُجَيْنًا وَتِبْرَا

فَالدَّنَانِيرُ هاوِيَاتٌ تُحَاكِي ... أَنْجُمًا فِي السَّمَاءِ تَنْقَضُّ زُهْرَا

وَتَلِيهَا دَرَاهِمٌ مُشْبِهاتٌ ... أَبْرُدًا تَمْلأُ الأَمَاكِنَ نَشْرَا

نَافِعَاتٌ لِلْحَرْثِ لاَ يَذْهَبُ الحُرْ ... ثُ فَسَادًا وَلاَ يُصاحِبُ قَطْرا

غَيْرَ أَنِّي انْصَرَفْتُ كَاسِفَ بَالٍ ... آسِفًا خالِيًا مِنَ الْكُلِّ صِفْرَا

مُضْمِرًا حَسْرَةً لِذاكَ وَغَمًّا ... وَاجِدًا فِي العِظَامِ مِنِّيَ فَتْرَا

سَاكِتًا إِنْ سُئِلْتُ عَنْ قَدْرِ حَظِّي ... لَمْ أَجِدْ لِلسُّؤالِ عِنْدِيَ خُبْرَا

جَمَعَ اللهُ ذَا عَلَيَّ وَعَيْذًا ... سَالِكًا بِي مِنَ التَّقَلُّلِ وَعْرَا

شَاهِرًا لِلْغِنِيِّ سَيْفًا وَقَتًّا ... لاَ بِهِ رَأْيُ يُعَالِجُ فَقْرَا

فَـاغْنِنِي كَـيْمَا عُهِـدْتُ عَلَيْـهِ بِعَطَايَـا أَكْـرَمَ النَّـاسِ طُـرًّا

وتحدث الناس بأن الوزير البريدي عازم على أن يدخل في يوم الفطر إلى الخليفة المتقي لله، وتحدثوا بأن الديلم قد عزموا إذا دخل الدار يفتكوا به، فأضرب عن هذا الرأي وتشكك فيه. فخاف الديلم - وقد شاع عنهم هذا - أن يقع عليهم حيلة، فكانت لهم حرجة وتجمع في يوم الأحد بالعشي بالجانب الشرقي، فصاحوا: خليفة يا منصور، وشتموا البريدي، وما ظهر في الشرقي من أصحاب البريدي أحد إلا شلح وأخذ ما معه.

وأصبحوا في يوم الاثنين فملئوا شطوط الجانب الشرقي يشتمون البريديين واستشرفتهم العامة فأعانوهم، وما كانوا يطيقون العبور؛ لأن أصحاب البريديين كانوا يرمونهم من الماء إلى أن عبر أهل فرضة جعفر بسميريات فعبروا فيها، وظهر ما كان ساكنًا في الجانب الغربي، وانضم إليهم وأعانهم العامة وكثروا معهم، وقصد الجميع النجمي فجلس الوزير في طيار، وانحدر جميع أصحابه في طياراتهم وزبازبهم، ووقعت الحراقة وتشبث بها قوم من الملاحين فظفروا بمال وطلب أسبابهم ووقع بدر الخرشني بأيدي العامة بناحية الزياتين فضربته العامة واستخفت به، وجرى عليه ما لم يجر على مثله ولا شبيه له قط، وتخلصه من أيديهم بعض أسباب السلطان وقد قارب الموت، وكان انحدارهم في يوم الاثنين سلخ شهر رمضان.

وأحضر أبو الحسن على بن عيسى للوزارة فأباها، وتقدم إلى أخيه أبي علي عبد الرحمن بأن يكتب عن الخليفة إلى الآفق بجميع ما أراد، ومنع أبو الحسن أخاه من أن يعرض للوزارة، وقد كان الناس فرحوا بذلك واستبشروا ليخلع عليهما، وجعل الناس يركبون إلى دار الخليفة، وقالوا: يكون الأمير ابن الخليفة أبو منصور، ثم لم يتم ذلك. وولي الوزارة أبو إسحاق محمد بن أحمد بن إبراهيم الإسكافي المعروف بالقرامطي، وأشار على الخليفة أن ينصب أميرًا يكفيه أمر

الجيش ويكون معاملتهم معه، فخلع على كورتكين الديلمي ويكنى أبا الفوارس للإمارة في يوم الخميس لثلاث خلون من شوال، ولبس الخلع وسار في الشوارع إلى أن صار إلى الدار التي يسكنها على دجلة وهي دار نصر الحاجب. وخلع على بدر الخرشني للحجبة لثلاث بقين من شوال، وأخرج كورتكين ابن أخته أصبهاني إلى واسط، وكان فتى حسن الوجه ومعه جيش، فورد الخبر بدخوله إلى واسط وانحدار البريديين عنها.

ووردت قافلة من خراسان إلى حلوان: فولي أبو محمد بن جعفر بن ورقاء طريق خراسان فمضى فتلقى القافلة وأوصلها مسلمة إلى بغداد وقبض على الحسن بن أحمد الشجري العلوي من الدار التي كان يسكنها وهي دار علي بن هارون بن علان اليهودي الجهبذ على قرن الصراة وكان هو وأصحابه قد آذوا الجيران غاية الأذى إلى أن انتقل أكثرهم ونهبت الدار، واجتمع جيرانها فأحرقوها، وقالوا نستريح من أن يسكنها أحد يؤذينا، فبقيت النار فيها أيامًا وكان ابن الشجري قد اتهم بأنه قد واطأ جماعة على أن يجلسوا في الخلافة عبد الله بن الراضي بالله بعد أن يوقعوا حيلة على كورتكين وكان سعيد بن عمرو بن سنكلا[1] النصراني قد حمل إلى القراريطي مالًا، قيل: إنه خمسة آلاف دينار فركب إليه واثقًا مع علي بن يعقوب كاتب ذكي الحاجب.

فلما صار إلى داره قبض عليهما، ووجه بابن سنكلا إلى دار السلطان، وقال له: قد ضمنت مال بيعة فهاته فقطع أمره على ثلاثة عشر ألف دينار منها على ابن سنكلا عشرة آلاف دينار، وورد رسول القرمطي الهجري يطالب بضريبته التي رسمت له في كل سنة لحفظ الحاج فوجه إليه منها بعشرين ألف دينار وخرج الحاج لأيام خلت من ذي الحجة، وقرب محمد بن رايق من بغداد

---

(١) في الأصل: ابن سنجلا. والصواب ما ذكرناه، وقد تقدم مرارًا.

وخرجت مضارب كورتكين إلى الشماسية مع المختار القرمطي، فأخذها مع الجمال ونفذ إلى ابن رايق، وطالب كورتكينُ السلطانَ بالخروج معه فأخرج مضربه، وأنفذ إلى ابن رايق مع خادم من خدمه كتابًا فيه خطه يأمره فيه بأن يقيم حيث أحب ولا يقدم، وكان عمارة القرمطي قد خالف علي ابن رايق وحاربه فقلت وجيء برأسه إلى ابن رايق، واجتمع من جند بغداد حجرية وساجية وغيرهم نحو ألفين خرجوا إلى ابن البريدي وقبض على الوزير أبي إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي لخمس ليال بقين من ذي الحجة.

وخلع على أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي لأربع بقين منه، ووردت كتب الحاج يشكرون أبا علي عمر بن يحيى العلوي كل الشكر لما أولاهم في طريقهم من حفظهم وإعانة ضعيفهم والتوقف عليهم.

وكتب كورتكين إلى ابن أخته وهو بواسط بأن يصير إليه لقتال ابن رايق بأن يصير إليه لقتال ابن رايق، فجاءه وأخلى واسط فصار البريدي إليها، وأمر بأن يخطب بها لابن رايق، وكان كورتكين قد ولى لؤلؤًا غلام المتهشم واسط، فشخص إليها، فلما بلغه موافاة البريدي إليها رجع إلى بغداد في ذي الحجة، وعيد الناس الأضحى على سكون وسلامة.

وطالب الديلم التجار بأموال فصار إليهم رجل يعرف بعبدون المتضمن كان لأمر الزواريق المصعدة والمنحدرة من مدينة السلام والبصرة ففتح على الناس أبوابًا من البلاء عظامًا، فلحقه قوم من غلمان التمارين وغيرهم وهو في سميرية فقتلوه وأخذوا رأسه، فنصبوه في التمارين فاضطرب الديلم لذلك وحملوا السلاح وقصدوا التمارين ليحرقوه ويتعدوا ذلك إلى ما يليهم من أسواق الكرخ، فمنعهم كورتكين من ذلك، وضبط الديلم، ووجه إلى التمارين ألا يعاودوا مثل هذا الفعل، فعد الناس هذا من أفضل آراء كورتكين، وترتب في قلوب الناس من يعقل منهم، ويفهم مرتبة العقلاء.

ودخل كورتكين إلى المتقى لله ليستبين ما في نفسه، قال: إن أمرتني بحرب هذا الرجل حاربته، وإن أمرتني بطاته أطعته، وإن أمرتني بأن أنصرف إلى المكان الذي ترسمني به. فقال له: بل حاربه، وأنا معك؛ فقد جاء محاربًا لأمري. فخرج كورتكين فأقام بنواحي عكبرا بموضع يعرف بالأنابين.

وجاء جيش ابن رايق فحاربوهم أيامًا فما أغنوا شيئًا، وكان الديلم مستظهرين عليهم.

وولي لؤلؤ إمارة جانبي بغداد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ولما رأى محمد بن رايق أنه لا حيلة له في الديلم وأنها قد عزت عليه وأن القليل منهم يفي بالكثير من أصحابه، احتال إلى أن سلك العراض، ودار بالموصل إلى بغداد، ووصل إليها من تخلص من أصحابه كالمنهزمين. ووصل أبو بكر بن مقاتل إلى مجلس الشرطة من الجانب الغربي فرأى الجسر مقطوعًا فأطلق من وقته دنانير وأقام من أصلحه وكان معه قواد ابن رايق ابن لأبي مسافر محمد بن ديوزان.

فلقي ابن مقاتل السلطان واستأذن لابن رايق، فأذن له، فدخل بغداد بعد يومين والديالم على جملتهم بموقفهم، ونادى لؤلؤ صاحب الشرطة في جانبي مدينة السلام: يا معاشر العامة، إن أمير المؤمنين قد أباحكم دماء الديلم وأموالهم فما عرف أحد من شذاذ بغداد وملاحيهم وعياريهم موضع أحد من الديالم إلا نهبوه وقتلوه وأخذوا جميع أملاكه، ثم وافى الديلم ودخل كورتكين من باب الشماسية وذلك في يوم الخميس لتسع بقين من ذي الحجة فجعل العامة يدعون له وهو يرد عليهم ومنع أصحابه أن يعرضوا لعامي، فما زال يسلك الشارع الأعظم من الجانب الشرقي إلى أن وافى دار الخليفة وهو لا يشك أنه معه على ما فارقه عليه فوجد الأبواب مغلقة فجاء من جهة الشط فرمى من التاج بالنشاب فرجع، وخيبه الله عز وجل حتى صار إلى جزيرة

حيال قصر عيسى لا يوصل إليها من الشارع إلا بسلوك دروب ضيقة فأقام بها وجعل سواده وبغاله في الأصطبل الذي بالمخرم.

وهذا كله بين يدي وأنا أراه من داري بقصر عيسى، ورمى أصحابه بالنشاب من دجلة، ورأيت ابن رايق قد جاء في سميرية ومعه غلامان يرميان حتى أعان من كان يرميهم من دجلة. وكثرت عليهم سميريات العامة يشتمونهم ويلعنونهم، وهرب أصحاب ابن رايق حتى وافى بعضهم الأنبار وبعضهم المداين.

وجاءني بعض قواده في تلك الليلة فرموا أسلحتهم عندي ومضوا مخفين لا يشكون في أن كورتكين إن صار إلى الشماسية وبات بها ليلة لم يبق من أصحاب ابن رايق أحد. فما هداهم الله لهذا الرأي وأقاموا بمكانهم حتى أدركهم الليل فولوا يريدون الشارع مبادرين، فصارت هزيمة، وضاربهم من في الدجلة ورموهم ورميت عليهم الستر في الدروب من فوق السطوح، وازدحموا فكان منى الواحد منهم أن يخلص إلى الشارع وظفر قوم من أصحاب ابن رايق ومن العامة بجماعة منهم في الجزيرة فقتلوهم وأخذوا دوابهم وأسلحتهم وعبر العامة إلى الإسطبل فوجدوا من سوادهم بقية فنهبوها، وفروا هاربين على وجوههم يريدون النهروان، إلا من اغتر منهم واستتر عند جار وعند صديق.

وكشف الله عز وجل عن الناس أمرًا عظيمًا مما أشرفوا عليه وخافوه، وأصبح الناس يطلبونهم ولا يظفرون بأحد إلا قتلوه أوحش قتل، وأمر ابن رايق باتباعهم فوجدوا قد عبروا جسر النهروان وقطعوه. وظفر منهم بنحو ثلاثمائة فحبسوا في دار الفيل في ظهر سور الحسنى وأدخل إليهم الرجالة السودان فخبطوهم حتى أتوا عليهم، وكان جماعة منهم في دار فاتك حاجب ابن رايق فجعل يرمي بهم من الأروقة إلى السطوح، ويقال للعامة: خذوهم،

فيبادر العامة بقطع آنافهم وآذانهم وأصابعهم وهم قيام أحياء، واستفظع الناس هذا الفعل واستعظموه وكرهوه.

وكانوا أودعوا في ليلة الثلاثاء أقوامًا أموالًا ففازوا بها، وظهر لهم يسار بعد أن كانوا فقراء وجعل العامة لا يلقون أحدًا متشبهًا بالديالم إلا قتلوه، وإن لم يكن منهم، ولا يرون مع أحد منهم دراهم إلا قالوا له: أنت كنت مع الديلم، وأنت تدري أين هم فدلنا عليهم، ويقتلونه في الطريق بحضرة الناس. وكان ذلك مما لم يعهد فعل مثله أحد، وهذا كله فإنما جرى لركاكة مدبري أمر ابن رايق، وجهل من معه، وأن الخليفة ليس معه من يشير عليه ويعرفه الواجب من غيره، وقد كان يبلغ من هؤلاء الأعداء ما يجب عليها، بقتل أحسن من هذا، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وبنهي العامة بعد أن ظفر بهم أن يتولوا بأيديهم قتل أحد حتى يصيروا بهم إلى سلطانهم. وكان قتل الديالم في دار الفيل في يوم الاثنين لخمس بقين من ذي الحجة.

وأخبر يوسف بن يعقوب البازعجي خليفة لؤلؤ على الشرطة بمكان كورتكين، فركب فاستخرجه من درب سليمان بقرب الجسر من الجانب الغربي، وصار به إلى ابن رايق فحمله إلى دار السلطان، وقبض على أخته أم أصبهان، فطولبا بالأموال فلم يعترفا بشيء فحبسا ونحن نعيد أمره.

وخلع على محمد بن رايق في يوم الثلاثاء لأربع بقين من ذي الحجة، وجعل أمير الأمراء، وطوق بطوق عظيم مكلل، بالجوهر وسور بسوارين، وجعل يشكو ثقل الطوق إلى أن نزل في دار مؤنس المظفر، ولزم الشرب ليله ونهاره أيامًا متوالية. وظهر أبو القاسم سلامة الحاجب، وظهر أحمد بن علي الكوفي، وصار إلى ابن رايق.

فأما خبري أنا في آخر شهر رمضان وقت انحدار البريديين من النجمي،

فإن الديالم في يوم الاثنين صاروا إلى دار ابن ينال الترجمان، وهي ملاصقتي بقصر عيسى فنهبوها، وصعدوا سطوحها فوجدوها كالمتصلة بسطوحي، فنزلوا علي من فوق سطوحي، وأنا غافل ولي مجلس وعندي خلق من أصحاب الحديث وأهل الأدب، فوثبنا إليهم وكلمناهم فما نفعنا شيئًا، وخرج حرمنا هاربات ولم يتركوا لي شيئًا من ذخائر وغيرها، إلا أتوا عليها وأخذوا لي نحو مائتي قطعة من الثياب أكثرها من كسي الخلفاء وخلعهم، وأخذوا من الزجاج الفاخر والصيني ما لا يضبطه عددي، ووجدوا قطيعة من دفاتري فنهبوها، وأخذوا كل ذخيرة لعيالي وثوب وجدوه لهم، وجعل من كان عندي يخرج فيلقاه قوم منهم على بابي فيفتشه ويأخذ شيئًا إن وجد معه.

ولقد حدثني بعض جيراننا أنه رآهم يتجاذبون على بعض الثياب حتى تخرق، فيأخذ كل واحد قطعة منها، وأنه رآهم فعلوا هذا بمناديل دبيقية، وظفروا بصندوق فيه طيب قد ذخرته فكسروه في الأرض فما وصلوا إلا إلى اليسير منه، وكذلك غالية كانت فيه وعنبر وند، وأخذوا لي سرجين أحدهما ثقيل وحمارًا من أصطبلي حتى اشتريته بعد ذلك بعشرة دنانير، وأشد ما بقي علي أن بعض ضعفى أصحاب الحديث كان يجيئني بعد ذلك، فيقول: كانت معي نفيقة فأخذت في دارك، وأحتاج أن أعوضه من ذلك، فكانت قيمة ما ذهب لي نحو ثلاثة آلاف دينار كلها لي ولعيالي، ما لأحد فيها شيء إلا لأبي الحسين بن القشوري؛ فإن صاحبًا له يعرف بابن المرايض، كان معه سرج له فتركه في داري وكان يسكن عندي ليرجع فيأخذه، فنهب، فوالله ما اكتسيت ولا عيالي إلى وقتنا هذا، وإني لفقير مذ ذاك لا رزق لي ولا اتصال بمن يصلني وينفعني، أتقوت أثمان دفاتري، وثمن بستان لي كان عيشي وجنتي، كل ذلك بشؤم مجاورة الترجمان لي. فسبحان من أفقرني وأغنى غيري من جيرانه حتى اعتقد به العقد وبعت عقدتي، وملك أمواله وذهب مالي!

وأعجب من هذا كله أني ظننته أنه سيترثى لي مما جرى علي إذا عرف أمري، فلما عاد إلى داره ناصبني العداوة، وأراد مني أن يملك ما يجاوره من دوري، ويتسع به ويعشر ثمنه، وأن يشتري بستاني بدوران، وقد أعطيت به نحو عشرة آلاف درهم، فراسلني في ذلك مرات فقلت لأبي الحسين القشوري - ولم يكن معه من يشبهه دراية وفهمًا -: صاحبك هذا مجنون حين يعطيني هذا العطية. فقال لي: كذا قومه بعض جيرانك له.

وزعم أنه أكثر ما أعطى به. قلت: فلم لا تصدقه أنت؟ قال: الذي قال له ذاك أخص به مني، وآثر عنده. ولقد استدعى في أول ما جاورني مخالطتي، وأن أنغمس في أموره، فأبيت ذلك خوفًا من العواقب. ولقد كلفني غير مرة أن أشتري له أشياء وأكتبها باسمي أو اسم من أثق به؛ لئلا يعلم أنه هو المشتري، فأبيت ذلك عليه منذ أيام بجكم، لما في مثل هذا من عاقبة السوء، ووجد غيري ممن يريد هذا ويتمناه ويتصنع له.

ولولا خوفي من إطالة الكتاب بما لا يحتاج الناس إليه، ولا يبالون بعلمه؛ لذكرت ما أتفرج به فإني كالمصدور يستريح إلى النفث، وكالإناء ينضح بما فيه. والحمد الله على كل حال وهو حسبي وعليه متكلي، وأقول ما قاله عبد الله بن طالب الكاتب وأنشدنيه لنفسه:

أَحَلْتُ بِرِزْقِي عَلَى رَازِقِي ... وَوَكَّلْتُ أَمْرِي إِلَى خَالِقِي

وَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِيمَا مَضَى ... كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِي

وقد أتيت على جميع ما كان من الحوادث في سنة تسع وعشرين إلى انقضائها. فلم يبق إلا ذكر من توفي فيها من أهل العلم الذين كان الناس ينتفعون بحياتهم، فأما الجهال فلا نبالي بأغنيائهم ولا فقرائهم.

ومن أهل الشرف والفضل توفي ابن الفدان العلوي يوم الأحد لسبع

خلون من شعبان وحمل فدفن بالحير. وقبل موته بأيام مات البربهاري، فسبحان من سر المؤمنين بموته، وفجعهم بموت ابن الفدان وهو في وقته من أكرم الأشراف وأسمحهم كفًا.

وتوفي القاضي أبو الأسود بن موسى بن إسحاق الأنصاري، وكان قد حدث.

ومات أبو علي بن إدريس الحمال في آخر يوم من رجب، وكان من قدماء العدول وقد سمع حديثًا كثيرًا، كنت أراه عند الحارث ابن أبي أسامة وكان يقدمه ويؤثره.

ومات رجل يعرف بجعفر البارد وكان قد حدث، وسمع الناس عنه، ومات منهم رجل يعرف بالسواق في شوال.

ومات منهم رجل يعرف بأبي عبد الله الأبلي، ومات المروزي المعروف بحامض رأسه، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وقد سمع الناس منه حديثًا كثيرًا.

ومات لأربع بقين من ذي الحجة أبو بكر المعروف بابن بهلول الأزرق، وقد كان حدث وازدحم الناس عليه، وكان عالي السن وله إسناد.

ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

ألزم محمد بن القاسم الكرخي بيته، واستكتب ابن رايق أحمد بن علي الكوفي.

ووافى من البصرة سفن كثيرة من سفن التمر، فرخص حتى بلغ الألف سبعة دنانير.

وظهر عند إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل صاحب خراسان ديلم فأخذوا

وأفلت منهم قوم فقتلهم العامة، وظهر على كورتكين لثمان ليال خلون من المحرم في دور سليمان، فأوصل إلى ابن رايق فوبخه وسلمه إلى دار السلطان، وكاتبت أخته ابن رايق وسألته أن يؤمنها فأمنها، فصارت إلى أخيها كورتكين، وطولبا بأموال، وضرب كورتكين، وأخذ منه مال قليل، وقال كل شيء كنت أفيده كنت أعطيه الديالم. وقد صدق في هذا ما كان يدخر شيئًا.

وانحدر ابن رايق إلى واسط لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم بعد أن فرق على جلسائه جملة دنانير، فكان ممن نادمه في ذلك الوقت علي بن هارون المنجم، فأمر له بألف دينار، وصرت أنا إليه لأودعه وهو في الزبيدية فقال لي: ألست معي في هذا السفر؟ قلت: إن أمر الأمير. فجذب الدواة ووَقَّع لي بخمسمائة دينار بخطه. فقلت لأبي عبد الله الكوفي: إلى من هذه؟ فقال: إلى أبي بكر بن مقاتل. وانحدر من ليلته وبكرت بالرقعة إلى ابن مقاتل، فقال: هذه مبهمة، يعطي خمسمائة دينار مبهمة، ولو كانت إلي لخاطبني.

فأخذتها وانحدرت من وقتي إلى المداين فعرضتها عليه، فوقع: يا أبا بكر أطال الله بقاءك ادفع إليه خمسمائة دينار، فدفع إلي مائة وخمسين دينارًا، وقال: أنا أدفع إليك الباقي بواسط، فأضفت إلى ما أعطاني مثله، وتحملت وخرجت إلى واسط، فما دفع إلى ابن مقاتل شيئًا. وكلما وقَّع إليه بتوقيع قال: أفعل، ونحن في إضافة إلى أن صالح البريديين وشخص عن واسط، ولزمتني مؤن أحوجتني إلى أن بعت شيئًا كان لي بالبصرة وأنفقته انتظارًا لوعده، فما وفَّى بشيء، ولا أطلق لي درهمًا واحدًا، فجئت إليه في اليوم الذي صاعد فيه، وقد تقدمه ابن مقاتل إلى بغداد، فقلت: أنهضني -أعز الله الأمير- إلى بغداد كما أخرجني أمرك عنها، قال: ألحقني بنهر سابس، فعلمت أنه لا يفعل شيئًا فجلست مضطرًا. ووافى أبو الحسين فصرت إليه فأكرمني وقربني، وكذلك أبو يوسف وتكفل بأمري كله، ووصلني سرًا وعلانية أبو القاسم عبد الله بن أبي

عبد الله الوزير.

وأما الوزير أبو عبد الله فإني لم أجده كما عهدت، على أني نكبت بعده، إلا أني أرجع منه إلى عشرة، ثم إن أبا الحسين لم يدعه حتى وصلني، وأضاف إلى ذلك صلة منه، ووصلني أبو يوسف وأمرني بملازمته ووصفني، وقال: قد سألني أهل البصرة أن أقدمك عليهم، وزعموا أن علومهم مجتمعة عندك، فتضمنت له ذلك.

وتغير الوزير وجعل يثلبني قوم عنده يختصون به، لست منهم في شيء، وخاصة لما شخص أبو الحسين يريد بغداد، فإنه كان يكلمه في أمري ويقوم بنصرتي إلى أن حجبني أيامًا، ثم أذن لي وأراد أن يمنعني من الجلوس في الجامع للناس، وتقدم بذلك إلى المعتمدي، فقيل له: إن الخلق كثير، وليس المنع من حديث رسول الله صلى الله عليه يحسن عند الناس. فأضرب عن ذلك، وكنت أتأخر فيعتب علي وأحضر فيعنتني، فإن سأل عن شيء فأصبت فيه خالفني، وأعانته العصبة التي حوله فقال لي يومًا - ولولا أن ما أحكيه داخل في باب العلم والإفادة، ما حكيته - : كم بالبصرة من قبيلة ليست بالكوفة، وكم بالكوفة من قبيلة ليست بالبصرة؟

فقلت بالبصرة: الهالبة، والمسامعة، والجارودیون، وباهلة.

وبالكوفة بنو أسد عدة مواضع وليس بالبصرة إلى مكان زعموا أنه سمي بغيرهم، وبها الأشاعثة. وبها المقيثون. فقال: ذهب عليك الأعظم وبنو حمان بالكوفة وليس هم بالبصرة! فقلت: بلى هم بالبصرة، فقال: كذبت، فقلت: والله الذي لا إله إلا هو ما كذبت منذ عرفت قبيح الكذب، فقال: يا يانس، هات مائتي دينار فجاء بها في صرة، فقال: إن كان بالبصرة بنو حمان فهي لك، وإلا غرمتك نصفها ووهبته، فقلت: الوزير -أعزه الله- يتفضل علي ويهب لي

أضعاف هذه، وما كنت لآخذ على هذه الجهة شيئًا ولو كانت ألفي دينار.

ولكني أحدث الوزير أعزه الله بشيء يتفضل باستماعه ثم يأمر بما شاء، قال: هات. قلت: رميت وأنا صبي في سنة خمس وسبعين بالبصرة مع إنسان يعرف بابن طاهر الهاشمي وهو يعيش، فكان رمينا: خرجه عندي فأجذبه إلى العتيك وخرجه عنده فيجذبني إلى هدف بني حمان، ويحضرنا ألوف من الناس ولقد أنشدني ابن ذكرويه لنفسه:

حِزْبُ الْعَلاءِ نَضَلْتُهُمْ فَتَرَحَّلُوا ... طَابَ الرَّحِيلُ إِلَى بَنِي حِمَّانِ

هَذا أَبُو ساسانَ قَدْ أَشْجَاكُمُ ... ماذا لَقِيتُمْ مِنْ أَبِي ساسانِ

وهؤلاء بنو المثنى وبنو عبد السلام، فإن شاء الوزير أن يستعلم هذا منهم فليفعل، فما رد جوابًا وأمر بدفع الدنانير.

وقال لي يومًا: من الذي أكل تمرًا وهو رمد من إحدى عينيه فنهاه النبي صلى الله عليه، فقال: إنما آكل من شق عيني الصحيحة؟ فقلت: هذا صهيب، فقال: أخطأت والله هذا عامر بن فهيرة. فقال له بعض من كان عنده وهو اليوم ببغداد: هذا مشهور عن عامر، فقلت: أعز الله الوزير لا تلتفت إلى قول من لا يدري.

حدثني عون بن محمد الكندي، قال: حدثنا عمرو بن عون، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الحميد بن صفي، عن أبيه، عن جده، عن صهيب، قال: قدمت على النبي صلى الله عليه وبين يديه خبز وتمر وقد رمدت إحدى عيني، فقال: ((ادن فكل)) فجعلت آكل التمر، فقال: ((يا صهيب أتأكل التمر وبك رمد؟)) فقلت: إني أمضغ من الناحية الأخرى! فتبسم صلى الله عليه.

وحدثني عون، قال: حدثنا يعقوب بن محمد، قال: حدثنا عاصم بن سويد، عن ابن إسماعيل بن مجمع، عن عبد الحميد بن زياد بن صهيب، عن

صهيب، قال: جئت والنبي صلى الله عليه في بيت كلثوم بن هرم بعد ما قدم من قباء بثلاث، وبين أيديهم تمر أو زطب قد كاد يتمر، وإحدى عيني شاكية فأكلت منه، فقال لي رسول الله صلى الله عليه: ((أتأكل التمر وبعينك ما بها؟)) فقلت: إنما آكل من شق عيني الصحيحة؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه حتى بدت نواجذه.

فقال: أرني هذا في كتاب، فقلت: ما معي أصل، ثم قلت لمن يجيئني من أصحاب الحديث: انظروا من عنده مسند فليجئني بمسند صهيب، فجاءوا به فحملته إليه. فقال له صاحب الكلام: فلعله قد قال هذا لعامر أيضًا! فقلت: هذا مسند عامر وهو كله ثلاثة أحاديث - وكنت قد استظهرت بأخذه - فنظر فلم يجد فيه شيئًا، فذهب المعترض يتكلم، فقال له: حسبك، الكلام في هذا بعد ما وقفنا عليه قلة حياء وقحة، إلى غير هذا من أشباهه.

ولما أراد أبو يوسف الرجوع من واسط إلى البصرة جذبني إليها ووعدني وتضمن لي ما يرغب في بعضه، فأعلمته أنه لا أصل معي من أصول الحديث ولا غيره، وأني ألم ببغداد وأحمل ذلك معي وأقصد البصرة. فقال لي: فلا تقيمن بعدي بواسط ساعة واحدة، فعرفت أن تحت هذا الكلام ما هو أعرف به وأعلم، وأنه قد نصح لي فشيعته، ثم صاعدت من وقتي إلى بغداد، فوجدت أبا الحسين بها والخليفة خارج عنها، فاستأذنت عليه فلم يأذن لي، وإذا كتاب الوزير قد ورد عليه: لا يدخلن الصولي إليك. فكنت مجفوًّا محجوبًا، فلما شخص إلى بغداد احتجب؛ إذ أستتر يومًا أو يومين لمعرفة الناس بكوني عندهم وثنائي عليهم، فكنت عند السيد الشريف أبي عبد الله الموساني، ثم خرجت لتلقي سيف الدولة؛ لأنه كان في حداثته يلزمني وقد قرأ علي علمًا كثيرًا.

فجمع بعض جيراني بقصر عيسى جماعة من العيارين ووهب لهم دراهم وكان له سكان في مثل حمام ودكان، وبثهم في نواحي بغداد يصيحون: ألا إن

الصولي قد خرج مع البريدي، وكان هو مع ابن قرابة آفة الناس معه، ووجه بهم إلى بستاني الذي بحضرة بستان حميد، فكسروا دواليبه وجمروا نخله وهدموا أبنية أنفقتُ عليها ألفي دينار ولم يدعوا سقفًا ولا خزانة إلا نهبوه، وفعلوا مثل ذلك ببستان بدوران، وهو الذي كان لغنج بن جاخ، وقد أنفق على أبنيته ألوف دنانير وما ترك فيه شيء.

ورجعت من عكبرا فرأيت ذلك، وعلم به سيف الدولة، فقال: ضع يدك على من شئت، فكرهت أن أصدقه عن الحال في فعل جاري، وجاءني أهل الناحية فعينوا لي جماعة فذكرتهم له، فأمر بقطع أيديهم فنظرت، فإذا ما مضى لا يعود وما أفعله بهم يحقد على أمثالهم، وفي زمان يتصنع كل قوم بألوان، ويحدث في الشهر منه دول، فأطلقت عنهم. فيا عجبًا لقوم حجبت عنهم، وكان رئيسهم لي على هذه الحال، أتهم فيهم بهذه التهمة، ويفعل بي مثل هذا الفعل، ثم يضرني ذلك عند بعضهم إلى الآن!

قد قضيت وطرًا من ذكرى حالي وإعلامي من يعلم حقيقتها، وما جرت عليه، تفرجًا بذلك واستراحة إلى شكواه إلى الناس. وأنا أعود إلى شرح الحوادث وما جرى إن شاء الله.

ولما انقضى أمر الديالم، وخلع على ابن رايق للإمارة ظهر أحمد بن علي الكوفي من استتاره فاستكتبه ابن رايق لنفسه والخليفة، وأراد أن يخلع عليه للوزارة فامتنع من قبول اسم الوزارة، وعمل ما كان يعمله الوزراء، ودبر أمر الناس كله أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل، وصُرف أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي إلى منزله فكانت وزارته للمتقي اثنين وثلاثين يومًا.

وشخص ابن رايق إلى واسط فدخلها، وانحدر البريديون إلى البصرة، وكانت لابن رايق بواسط أمور عظام من تشاغله بالنبيذ ليله ونهاره، حتى أن

رؤساء أصحابه لا يرونه إلا لحظة في كل مدة.

وحضرت له دعوة عظيمة في يوم صادفه فيه بعض الأتراك، إلى غير هذا مما يترك ذكره، ثم راسل البريديين وواقفهم على حمل، ورحل عن واسط إلى بغداد، وتجدد لهم رأي في رد الوزارة إلى أبي عبد الله البريدي؛ فعقد ذلك له في يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الآخر، في هذه السنة، وهي سنة ثلاثين وثلاثمائة. واستخلف له بالحضرة على خدمة السلطان وتدبير الطساسيج -أبو جعفر محمد بن شيرزاد، وحملت الخلع إلى واسط، فلبسها الوزير، وركب فيها بين يدي داره، وكنت أنا بواسط فقال لي: أعملت شيئًا في أمرنا هذا؟ فأنشدته شعرًا، والله ما مدح أحد منهم قط بمثله فيه وهو:

هَنِيئًا لِلْوَزِيرِ قَضَاءُ دَيْنٍ ... بِهِ أَضْحَى الزَّمَانُ قَرِيرَ عَيْنِ

وَعَوْدُ وِزَارَةٍ سِيقَتْ إِلَيْهِ ... كَعَوْدَةِ قُرْبِ حِبٍّ بَعْدَ بَيْنِ

أَبِي عَبْدِ الإِلَهِ أَجَلَّ كَافٍ ... تَسَمَّحَ بِالنُّضَارِ وَبِاللُّجَيْنِ

وَهَنِّي ذَاكَ يَعْقُوبًا أَخَاهُ ... وَصِنْوَهُمَا الْكَرِيمَ أَبَا الْحُسَيْنِ

هُمَا قَمَرَا الزَّمَانِ وَغُرَّتَاهُ ... مُرِيحَا الْمُلْكِ مِنْ عَارٍ وَشَيْنِ

أَحَلاَّ مِنْهُ نُصْحًا وافْتِقَادا ... مَصَالِحَهُ مَحَلَّ النَّاظِرَيْنِ

وَمَا كَانَ الْفَسَادُ وَقَدْ تَعَلَّى ... لِيَخْفِضَهُ سِوَى إِصْلاحِ ذَيْنِ

وَهَنِّي ذَاكَ عَبْدَ اللهِ فِيهِ ... فَتَاهُ فَهُوَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ

هِلاَلٌ لَمْ تُبَدِّدْهُ اللَّيَالِي ... فَيَنْقُصَهُ مُرُورُ الْفَرْقَدَيْنِ

تُرَادِفُهُ السِّيَادَةُ غَيْرَ وَانٍ ... وَيُشْبِهُهُ تَشَابُهَ قَرَّتَيْنِ

كَمَا أَوْدَعْتَ سَطْرًا مِنْ كِتَابٍ ... وَلَمْ تَنْقُطْهُ غَيْنًا بَعْدَ عَيْنِ

وَزِيرٌ مُقْبِلُ الأَيَّام عالٍ   عَلَى أَعْدائِهِ طَلْقُ اليَدَيْنِ
يُهِينُ المَالَ بالأفضالِ جُودًا   وَمَرْقَى الجُودِ صَعْبٌ غَيْرُ هَيْنِ
سَيَقْضِيهِ الزَّمانَ بِطُولِ عُمْرٍ   وَتَمْلِيكُ الرِّياسَةِ كُلُّ دَيْنِ
غَدَتْ خِلَعٌ عَلَيْهِ تائهاتٌ   بِعالِي النَّفْسِ عَالِي الذِّرْوَتَيْنِ
جَلَتْ بِسَوادِها ظُلَمَ اللَّيالِي   كَما تَجْلُو سَوادَ المُقْلَتَيْنِ
بِمَنْطِقِهِ يَلُوحُ الحَلْيُ فِيهَا   كَما لاحَتْ نُجُومُ الشِّعْرَيَيْنِ
تُناطُ مَعالِقٌ مِنْهَا رِقاقٌ   بِمَصْقُولٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ
كَرَأْيٍ مِنْهُ يَفْعَلُ في اللَّيالِي   وَفي الأَيَّامِ فِعْلَ النَّيِّرَيْنِ
فَأَعْلَى اللهُ سَادَتَنا جَمِيعًا   وَأَبْقَاهُمْ بَقَاءَ الفَرْقَدَيْنِ
وقَلَّمَ عَنْهُمْ ظُفُرَ المَنَايَا   بِقُرْبِ مُناهُمُ وَبِبُعْدِ حَيْنِ
ومِلْكٍ لِلْوَرَى وَصَفاءِ دَهْرٍ   يَرِينَ عَلَى عِداهُمُ أَيَّ رَيْنِ
فَكَمْ عُذِلُوا عَلَى إِفْراطِ بِرٍّ   فَما أَصْغَوْا لِعَذْلِ العاذِلَيْنِ
أَقولُ بِما عَلِمْتُ مَقالَ صِدْقٍ   بَعِيدِ الشَّأْوِ مِنْ كَذِبٍ وَشَيْنِ
لَقَدْ صَانُوا الوِزارَةَ بَعْدَ هَتْكٍ   وَزانُوهَا وَكانَتْ غَيْرَ زَيْنِ
بِرَأْيٍ مُسْتَنِيرٍ لِلْمَوالِي   وَصَعْبٍ لِلمعادِي غَيْرِ لَيْنِ
وَأَقْلامٍ تُحَكَّمُ فِي الأَعادِي   كَحُكْمِ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِي
وَيَغْنَى الرُّمْحُ فِيها عَنْ ثِقافٍ   وَيَغْنَى السَّيْفُ عَنْ إِصْلاحِ قَيْنِ
وَتَخْفُقُ بِالَّذِي تَهْواهُ كُتْبٌ   تَكُونُ بِها صَلاحُ الخافِقَيْنِ
تَرَى الأَقْدارَ مُصْعِدَةً إِلَيْهِ   تَسَحَّبُ بَيْنَ تَسْجِيَةٍ وَطَيْنِ

obeikandi.com

ثَــوابُكُمْ عَــلَى إِصْــلاحِ مُلْــكٍ	ثَــوابُ شُــهُود أَحْــدٍ أَوْ حُنَــيْنِ
فَــرَعْتُمْ فِي بَنِــي الأَحْــرارِ طَــوْرًا	يَطُــولُ الــرَّعْنُ فيــه ذا رُعَــيْنِ
وَزَادَكُــمْ مُحَمَّــدكُمْ عُلُــوًّا	وَيَعْقُــوبٌ شَرِيــفُ الْجَــانِبَيْنِ
وَرِثْــتُمْ عَــنْهُما كَرَمًــا وَفَــضْلًا	كَــذَاكَ يَجِــيءُ نَجْــلُ الْفاضِــلَيْنِ
لَقَــدْ أَصْــلَحْتُمْ مــا بَــيْنَ دَهْــرِي	عَــلَى رَغْــمِ الْعِــدَى كَرَمًــا وَبَيْنــي
سَأَقْــضِي فِي مَــدِيحِكُمْ حُقُوقًــا	كَــمَا يُقْــضَى حُقُــوقُ الْوَالِــدَيْنِ

فوصلني الجماعة على هذا وشكروني سوى الوزير؛ فإنه كان عنده بمنزلة أردأ الشعر وأوضع المدح.

ثم رأى السلطان وابن رايق أن يحلوا ما عقدوه من أمر البريدي وينقضوا ما أبرموه؛ فخلع على أبي إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي للوزارة، يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، وصرف به أبو جعفر بن شيرزاد إلى منزله.

وصح عند السلطان عزم البريدي على قصد الحضرة في جميع رجاله؛ وذلك لمهانة ابن رايق ومطالبة ألف من الأتراك البجكمية له بأرزاقهم فلم يحسن أن يتلافاهم وترفق بهم، حتى شذوا عنه ومضوا إلى البريدي إلى واسط، وكان الترجمان يزعم أنه هو الذي أصلحهم له وأفسدهم على السلطان، فقووا نفسه وزينوا له ورود الحضرة، فركب المتقي لله الظهر في يوم الثلاثاء، ثاني اليوم الذي خلع على القراريطي فيه للوزارة، وأمر بالنداء في العامة بلعن البريديين، وتحريضهم على قتالهم. وبين يديه مصاحف منشورة فسار من داره إلى الجسر وركب الماء وعاد إلى قصره وأمر بإصلاح العرادات والمنجنيقات حوالي داره، وحفر خندق والحاجب في الوقت سلامة.

واستدعى ابن رايق العيارين، فكان ذلك خطأ من رأيه عظيمًا.

وخرج أبو الحسن علي بن محمد البريدي من واسط يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الآخرة، ولما قرب من بغداد بلغ الخبز في عسكره رطلًا بدرهم ثم لم يوجد.

وفتح العيارون السجون، وكان هذا من فعل ابن رايق؛ توطئة لما يريد البريدي؛ لكثرة العيث من العامة وغلبتهم على التجار وأهل البيوتات. وعَبَر أصحاب البريدي نهر ديالى، فحاربهم القرامطة وبدر الخرشني ساعة ثم انهزموا.

وفي الوقت الذي ركب الخليفةُ الماءَ من الجسر ورجع إلى قصره، انقطع الجسر وانخلع الكرسي وهو مملوء بالنظارة، فغرق خلق كثير من رجال ونساء وصبيان.

وفي يوم الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة انهزم جيش ابن رايق والعامة، وغرق من العامة بين يدي النجمي خلق كثير لا يضبطهم العدد، وخرج الخليفة وابن رايق إلى باب الشماسية وتبعهم الناس فباتوا بالبردان. وغرق أبو محمد بن سلامة الحاجب وكان فتى نفيسًا قد تأدب وسمع حديثًا كثيرًا.

وملك البريدي الدار، ووجه بابن أبي داود الأواني إلى الخليفة يحلف له أنه لا يريد إلا خدمته والانتهاء إلى ما يريده ويأمره به، فلم يلتفت إلى ذلك ورحل إلى سر من رأى، ولحقه الحسين بن سعيد بن حمدان في عسكره.

ونزل أبو الحسين البريدي دار مؤنس الخادم، ووجه إلى خدم الدار فأحضرهم. وأمرهم بحفظ الحرم، ووعدهم أنه يجري عليهم جراية واسعة، وضبط أبو عبد الله الأعمال كلها.

ولقي الناسُ من الديالم وتَنَزّلِهم عليهم بلاء عظيمًا، وقال بعضُ من عاين الأمر في ذلك الوقت: أي شيء كان أحسن من أن يوجه بألف فارس، ويضمن لهم مال حتى يردوا الخليفة وابن رايق فيجلس الخليفة في داره ويوسع عليه، وعلى حرمه وحشمه في النفقات، ويخلع على ابن رايق ويخرج إلى الشام على أجمل الحال، فيكون الظفر القبيح أحسنَ ظفر، وتحسن الأحدوثة.

وركب السكري حاجب أبي الحسين البريدي ونادى: ألا ينزل أحد من الجند على الخد؛ فكف البلاء قليلًا.

وخطب الخاطب يوم الجمعة فدعا للمتقي لله، ونودي: إن وجد مع عامي سلاح قتل.

ووافت من ابن طغج هدية سرية للخليفة إلى الأنبار، فلما علم بما جرى، ردها إلى هيت، ورخصت الأسعار بمدينة السلام وسر الناس بذلك، وحصل السلطان بالموصل في رجب، وقد كان العباس بن شقيق صاحب أمير خراسان وافى، فأقام بالنهروان حتى يؤذن له في الدخول، فأذن له ووصل وجاء معه برأس ما كان الديلمي، وشهر في دجلة في غرة شهر ربيع الأول، وكان ركوب الخليفة إلى بثق النهروان يوم الثلاثاء لتسع خلون من شهر ربيع الأول فصلى عليه، فما انصرف جنده[1] حتى تهور السكر وعاد البثق إلى حاله.

ولما ملك جيش البريدي الدار، نهبوا جميع ما وجدوا فيها، وداروا في صحونها، وفعلوا ما لم يفعله أحد قبلهم، فقد كان الخلفاء يقتلون بسر من رأى ودورهم محفوظة مصونة، ولما دخل الحاجُ بغدادَ في أول صفر سالمين دخل معهم أبو العباس أحمد بن سعيد بن عقبة الكوفي، وكان أحفظ الناس للحديث

---

(١) في الأصل: حدا.

وأكثرهم كتابًا له، فوعد الناس لجلوسه فجلس يوم السبت لست خلون، في مسجد الشرقية، فأملى وقُرئ عليه، وجلس بعد ذلك في الجامعين الشرقي والغربي، وحدَّث وجلس في براثا مجلسين، وأملى فضائل كثيرة.

وعز الدقيق بمدينة السلام فلم يوجد، فبعث المتقي لله بأبي الفرج المالكي القاضي إلى الحسن بن عبد الله يأمره بإدرار حمل الدقيق، وقد كان المكوك بلغ ستة دراهم، فجاء الدقيق في شهر ربيع الآخر فصلح السعر. وأخذ رجل يعرف بالكرخي يقطع في طريق واسط حتى انقطع الطريق من أجله فقتل. وصرف القضاء من الجانبين ببغداد، وتقلد القضاء بهما أبو الحسن أحمد بن إسحاق والخرقي لأيام بقين من شهر ربيع الآخر. وخلع عليه في يوم الخميس، فنزل في جامع الرصافة وقرأ عهده.

وقيل للحسن بن عبد الله: إن ابن رايق قد عزم على قتلك، فبادره ففتك به وقد عبر إليه. ووافى بغداد الخبر بقتله لأربع بقين من رجب، وأن السلطان زاد الفارسَ عشرة دنانير، وزاد الراجل دينارًا، وقبضوا أرزاقهم على ذلك، وتسحب الديالم على أبي الحسين البريدي، فلما رأى ذلك أمرهم باللحاق بواسط، وأن الوزير يريدهم، فخرج أكثر رؤسائهم.

وأخبر أبو الحسين البريدي أن جماعة من الأتراك قد عزموا على الفتك به. وأن الأمير أبا الوفاء توزون التركي رأس ذلك وصاحب التدبير فيه، وعلم توزون بأن الخبر قد فشا فبادر فكبس دار مؤنس ليلًا. ونقب فيها نقوبًا كثيرة فلم يصل إلى ما أراد وحاربه الديلم وأصبح فكثر الجيش عليه، ولم يخرج إليه من كان وعده أن يكون معه فصار إلى البردان، ثم صار إلى عكبرا، وقبض على العمال وأخذهم بجباية المال، فقصده جماعة من القواد فناوشهم، فلما رأى كثرتهم صار إلى سر من رأى، وتأخرت أرزاق الديلم أيامًا، فصاروا إلى الشماسية، وصاحوا: خليفة يا منصور، فوجه إليهم فأرضاهم وعادوا.

وولي ناصر الديلمي شرطة الجانب الشرقي مكان توزون فالتزم وأنصف.

وتواترت الأخبار بإقبال السلطان إلى بغداد، وأن الأمير أبا الوفاء حركهم، وقال: كِلوا الأمر إلي، وكونوا من ورائي، فأخرج البريدي المضارب إلى الشماسية ليقاتلهم، وعيد السلطان بحبة من طريق ووافى الموصل تكريت، وأخرج البريدي الأتراك والديلم إلى المضارب بباب الشماسية، وأنفذ أبا طاهر القاضي برسالة إلى السلطان؛ بأن يجيء إلى داره، وينصرف هو والجيش عنه، فعاد بجواب لم يحبه البريدي.

وهرب قائدان من قواد الديالمة في أربعمائة نفس إلى السلطان. ووجه البريدي بالترجمان من واسط في عدة ورجال؛ مددًا لأخيه أبي الحسين، فدخل بغداد يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، واتهم ابن شقيق صاحب أمير خراسان بأنه يضرب الجيش فأنفذه إلى واسط بعد أن أراد حبسه وتقييده، فمنعه الأتراك من ذلك؛ عصبية له.

وخاف أبو الحسين البريدي أصحابه ولم يثق بهم، فأرى الناس أنه مصاعد لقتال السلطان، ثم انحدر هو وأصحابه ليلًا ورمى بعضهم العامة.

ووافى الحسن بن عبد الله بغداد ومعه مال أعده لعمارة بغداد وضياع السواد، وذهب لتوزون مال عظيم فعوضه الحسن من ذلك رزق عشرة آلاف دينار كل شهرين برسم المماليك، وضج الناس بالدعاء وضربت مائة قبة ودخل الخليفة بغداد يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال، وكان خروجه عنها يوم السبت، لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة، فكانت غيبته ثلاثة أشهر وعشرين يومًا.

وحمل البريدي عياله معه حين انحدر، وصادر بعضهم وقلد الأمير توزون جانبي بغداد، وخلع على أبي إسحاق القراريطي للوزارة في في يوم الاثنين،

لست بقين من شوال.

وقال الحسن بن عبد الله: مادة البريديين ضرائب التمر، فتقدم بالنداء: ألا يحمل أحد من التجار مالًا إلى أسفل، فغلا الثمن وبلغ ما لم يبلغ مثله قط.

ونزل الحسن وأخوه عند الشفيعي لينحدروا، وغلت الأسعار فتشاءم[1] الناس بتلك الأيام، وقالوا: كان الرخص مع البريدي.

وخلع على الحسن بن عبد الله، وطوق وسور بسوارين، وسمي ناصر الدولة.

وخلع على أخيه أبي الحسن وعمل به مثل ذلك، ولقب سيف الدولة وقرئت الكتب وأنشئت بذلك.

وصرف الحسن بدرًا الخرشي، وولى أبا بكر أحمد بن خاقان الحجبة، وقد ذكرنا ذلك، وخرج أبو الحسين البريدي يريد بغداد، وخرج توزون في مقدمة السلطان، ووقعت الحرب لليلة خلت من ذي الحجة بموضع يعرف بالجال أسفل المدائن، فانكشف جيش البريدي وكان سبب ذلك انهزام الترجمان وأسر جماعة أحدهم يانس وقد ذكرنا هذا.

وشهر ناصر الدولة أسر البريديين في الجانب الغربي يوم الجمعة، وصلى بجامع المدينة. وجرت بينه وبين الصيارف بمدينة السلام خطوب كثيرة في عيار الدنانير، حتى عمل عيارًا كالسندي أو مقاربًا له، وزاد في سكة الدينار - عند ذكره محمد رسول الله - صلى الله عليه، كأنه زاد صلى الله عليه، والوفاء زيادة حسنة جميلة وفضيلة له في الدنيا والآخرة.

---

(١) في الأصل: فتأشم.

وولى ناصر الدولة عيسى جال، وكان في لمستأمنة ميفارقين.

ووافى سيف الدولة واسطَ، فأراد قوم من الديالمة أن يفتكوا به فظفر بهم فوجههم إلى بغداد في زورقين، فقتل بعضهم ممن أقر وحبس من لم يقر، وسقطت خضراء مدينة المنصور في جمادى الآخرة فاغتم لذلك ولد العباس.

وحدثني جماعة من التمارين: أن ناصر الدولة خاطبهم، فقال: ما أعوض للضريبة على شيء سوى التمر، وبارك الله لكم في كل شيء غيره؛ يعني: ضريبة ما حصل ببغداد: قالوا: فقال له رجل إلى جانبه ونحن نسمع: والدبس فقال والدبس، فقال له والبسر فقال والبسر.

وقال: الذي أومئوا إليه أشرت بثلاثة ألوان فما قبلت مني: أشرت بأن يبادر الخليفة عند موت بجكم إلى واسط، وينفذ الجيوش إلى البصرة فلم يقبل، وأشرت بالقبض على تكينك وأخذ ماله وهو جم تام فلم يفعل. وأشرت بألا يوجه بابن شيرزاد إلى البريديين؛ فإن ذهابه ينفعهم ويضرنا فلم يفعل، فجعلت على نفسي ألا أشير بشيء بعد هذا.

ولما استوزر محمد بن أحمد الإسكافي في المرة الأولى استخلف الحسن بن أحمد الماوردي على النظر في أمر العمال وعلى سائر الأعمال، وقلد أحمد بن نصر البازيان أبا علي الرقام إلى ما كان قلده إياه أحمد بن علي الكوفي من ديوان المغرب، وأقر الباقين على حالهم، إلا أبا عبيد الله بن عبد الوهاب فإنه قلده الدواوين التي كانت إلى جماعة من خواصه؛ لاستئثاره عنده، ثم قلدها الأوارجي كاتب محمد بن علي بن مقاتل. هذا جميع ما كان من الحوادث في سنة ثلاثين وثلاثمائة.

ونذكر الآن من مات فيها: مات أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي القاضي يوم الخميس لثمان ليال بقين من شهر ربيع الآخر ونودي على حضور

جنازته في جانبي بغداد، وما كان بقي على الأرض محدِّث أسند منه، مع صدقه وثقته وستره رحمه الله.

ومات في صفر جعفر الدقاق لسبع خلون منه، وكان حافظًا للحديث فسبحان من بعد في الستر والصدق بين الاثنين. وتوفي العباس بن المقتدر بالله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة.

ومات أبو بكر الشافعي الفقيه صاحب علي بن عيسى يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

ومات علي بن محمد بن عبيد الله الحافظ لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، وكان قد سمع حديثًا كثيرًا، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين ومائتين.

وقد ذكرنا قتل ابن رايق، وورد الخبر بأن يانسًا المؤنسي وعلي بن خلف بن طياب قاتلا ابن مقاتل الصغير، المكنى أبا الحسن فقتلاه.

انقضت سنة ثلاثين وثلاثمائة بأحداثها.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة

اشتد فيها ناصر الدولة على الذعار؛ لعيثهم وإفسادهم، فكحل وقتل وعاقب فاستوى البلد قليلًا.

وأنفذ أحمد بن علي الكوفي للعمارة والنظر في مصالحها وليوافيه على المال المفرق على الجند.

وقدم المرسوم بأنه سابق الحاج لثمان ليال خلون من المحرم، وأخبر بأن بني هلال بن عامر بن صعصعة وقفوا بالحاج، فقتلوهم ونهبوهم.

ودخل الحسن بن بويه الري، وهزم ابن محتاج صاحب ابن إسماعيل بن أحمد.

وفي المحرم من هذه السنة ضرب ناصر الدولة دنانير بعيار اختاره لم يضرب قط مثله إلا السندي بن علي.

وكان الناس يكتبون على الدينار: لا إله إلا الله من جانب، محمد رسول الله من الجانب الآخر، ويذكرون بعده نعت الخليفة، فزاد ناصر الدولة في السكة - بعد محمد رسول الله - صلى الله عليه، فكانت هذه عندي أجل منقبة لآل حمدان ما كان لهم مثلها تفرد بها ناصر الدولة.

وبلغه مع ذلك أن الصيارف يربون رباء ظاهرًا، فأحضرهم وحذرهم وأحلفهم، فتحسن قبيح أمرهم قليلًا.

وخلع على أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم، وولي أرمينية وآذربيجان وعقد له لواء.

وصاح المسجنون بناصر الدولة واستغاثوا إليه من الضر والجوع والسجن، إلى جانب داره. فتأذى بهم وجلس لهم جلوس غضبان، فأطلق وقتل وقطع وكحل، وكل هذا من الإجراء عليهم، فأخلى السجون فلم يترك فيها أحدًا.

وخلع في أول صفر على العباس بن شقيق رسول نصر بن أحمد أخي إسماعيل، وعقد لصاحبه لواء، فحمله غير منشور، ودفع إليه سيف وخلع سرية لصاحبه، وقد كانت لابن شقيق هذا خطوب من اتهام أبي عبد الله البريدي له وكتابه من واسط إلى أخيه ببغداد: أن يحذره فزعم العباس لما أفلت ورجع أنه أراد قتله، فمنعه وجود الأتراك من ذلك، وأنه أخذ أكثر ما كان اشتراه لصاحبه من فاخر الثياب والفرش وغير ذلك، واحتج عليه بالإضافة والحاجة إلى مثل هذا.

ثم إن ابن شقيق جد في الخروج إلى صاحبه، وقد كان ورد عنه الخبر

بموته فاحتال أن كتب كتبًا ونصب نبوخًا بطلان موت صاحبه؛ خوفًا أن يعطف السلطان على ما بقي معه وما استنفد بعد فيأخذه، فخرج عن بغداد وتبعه ناس كثيرون، فناله ثلج في الطريق بقرب همذان، فمات أكثر الناس وذهبت أمتعتهم، وكان ابن شقيق أسوأهم حالًا.

وورد الخبر بغلبة الروم على أرزن وميافارقين، ومجيئهم إلى دارا، وسبيهم الرجال والنساء، فعظم ذلك على الناس.

وقصد ناصر الدولة المولدين من المرتزقة، فأسقط أرزاقهم، ووفر المال على المقيمين بواسط لحرب البريديين، وأخرج كاتبه النصراني المعروف بسهلون إلى ابن طغج في صفر بهدايا كثيرة، وطلب مال السلطان، فخرج إلى هيت وركب البرية إلى دمشق، ومعه خلق عظيم فهلك أكثرهم ونهب ما كان معهم.

وغلب البريديون على نواحي الجامدة، لخلاف وقع بين سيف الدولة، وبين توزون التركي.

وصار أحمد بن بويه أبو الحسن الديلمي إلى دجلة البصرة، فأقام حيال نهر معقل يحارب البريديين، فوردت كتبهم على ناصر الدولة يسألون الصلح، وأن يولوا ويقاطعوا على مال يحملونه، فلم يجابوا.

وورد كتاب الديلمي يسأل مثل ذلك، فأجيب إليه وأنفذت الكتب جوابات كتبه، وخلع طمعًا في أن يزيل أمر لبريديين، واتصلت الحرب بينهم إلى أن استأمن إلى البريديين قائد للديلمي: فحمل البريديون بين يديه مالًا عظيمًا، وأعطوه من الثياب والطيب وسائر ما يعطاه مثله. ما عظم وشاع ذلك واستعظم إلى أن خاف ابن بويه أن يستأمن رؤساء عسكره، لما اتصل بهم من الخبر بما عمل بالمستأمن، فرحل راجعًا إلى الأهواز.

وتحدث الناس بأن القرمطي الهجري ولد له مولود، فأهدى إليه أبو عبد

الله البريدي هدايا عظيمة فاخرة فيها مهد ذهب مرصع بالجواهر.

وزوج الخليفة المتقي ابنه أبا منصور بابنة ناصر الدولة في شهر ربيع الأول. ووقع الإملاك في يوم سبت، ووكل ناصر الدولة، أبا عبد الله بن أبي موسى العباسي في قبول ذلك عليه والقيام به عنه وجعل الصداق خمسمائة ألف درهم، وجعل النحلة مائة ألف دينار.

وصاعد ابن الخليفة بعد الإملاك إلى ناصر الدولة إلى داره بباب خراسان، فنثرت عليه بدرتا دنانير التقطها من كان معه وأصحاب ناصر الدولة، وتغدى عنده في اليوم الثالث جماعة من قواده وتجاره، فرأيت الناس كالمجتمعين على أنه كان طعامًا ناقصًا عن المقدار، مقصر الشرط والكمال والآلة.

وكثرت المتلصصة ببغداد وكبست دور المياسير، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه، على انسداد طرقهم، ولو أمنوا لخرج أضعاف من خرج.

وراسل أبو الحسين علي بن محمد بن مقلة ناصرَ الدولة، في أن يستوزره وضمن مالًا عظيمًا، على أن يطلق يده على الناس، وأسمى قومًا، منهم: سلامة أخو نجاح، وعبد الله بن علي النفري الكاتب، والقاضي ابن الأشناني، وأبو العباس الأصهباني، وابن بلال الدقاق حتى أتت التسمية على سبعين نفسًا فيما يقال، فأجيب إلى ذلك مع ما ضمنه من مال أبي إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي وأصحابه.

ثم أخر ناصر الدولة أمر ابن مقلة واستوزر أبا العباس أحمد بن عبد الله الأصهباني، وهذا برأي أحمد بن علي الكوفي، فلم يكن له في الوزارة الا التسمية، والكوفي ينظر في الأعمال والأموال، فكان على ذلك إلى أن هرب ناصر الدولة فصرفه المتقي لله صرفًا جميلًا، وأقره على ما كان في يده من تدبير أمر ضياع والدته وضياعه، واستوزر أبا الحسين بن مقلة، وخلع عليه في شهر

رمضان بعد خروج ناصر الدولة لولا أن ناصر الدولة لم يخرج، حتى نكب سلامة الحاجب، وابن الأشناني القاضي، وابن بلوا المعطى، وعذبه عذابًا شديدًا ما سمع بمثله، وذكر جماعة، وسن من الضرائب على الناس ما لم يسمع بمثله.

وأتى قبل ذلك على التمارين بأخذ أموالهم، فحدثني جماعة منهم قالوا: دخلنا عليه هو بالقرب من مضربه، فقال لنا: ما آخذ ضريبة إلا من التمر وأنتم أعلم وما لكم بعده، فسررنا بذلك قليلًا، فالتفت إليه بعض من يدبر أمره، فقال: والدبس، فقال: والدبس، فقال له: والبسر، فقال: والبسر، فأتى بقوله هذا علينا[1].

وضيق ناصر الدولة على المتقي لله في نفقاته، وعلى أهل داره وانتزع ضياعه وضياع والدته فجعلها في جملته، واقتصر به على أجزاء يسيرة.

وخاطب أبا الحسن بن أبي عمرو الشرابي في أمر السكنجبين بخطاب شهره الناس وتحاكوه، وقال: إنما يكفي دار الخليفة خماسية سكنجبين في كل يوم، ولأطالبنك بمال ما كنت تأخذه.

وتحدث الناس من فعله هذا وصنعه بالخليفة، ما كثر به الشاكي له والداعي عليه، وتمنى الناس بني البريدي وغيرهم، مع ما نالهم من الضر والضرائب والغلاء ونكبات الناس، وأخذ أموالهم. وشكى مع ذلك أن أمر الرفض قد علن ببغداد، فنادى مناد في جانبي بغداد عن السلطان ببراءة الذمة ممن سمع بذكر أحد من الصحابة بسوء.

وأراد غلام من غلمان ناصر الدولة أن يسمه ففطن له، وزعموا أن سبب

---

(١) سبق ذكر هذه الفقرة.

ذلك فاتك حاجب ابن رائق كان محبوسًا في دار ناصر الدولة، وكان يعرف هذا الغلام فواطأه على ذلك وضمن له مالًا.

وغلت الأسعار في جمادى الآخرة غلاء عظيمًا، ومات الناس جوعًا، ووقع فيهم الوباء؛ فكانوا يبقون على الطريق أيامًا لا يدفنون، حتى أكلت الكلاب بعضهم.

وأنفذ ناصر الدولة حاجبه يرفع مددًا لأخيه على سيف الدولة ليمضي إلى الجامدة، وحذر معه أحمد بن علي الكوفي، واتهم ابن جعفر الخياط بأنه كاتب البريديين، فقبض عليه ناصر الدولة، وأقطع الخليفة ضياعه، فاستبشع أن يكون هو المقطع للخليفة، وأن يدون الكتب بذلك.

وخرج الناس إلى المصلى يوم الاثنين مع الإمام ابن عبد العزيز الهاشمي. فدعوا الله وسألوه أن يكشف البلاء والضر عنهم.

وفي جمادى هرب جماعة من رؤساء الديلم والبربر من بغداد إلى البريدي، فلم يتبعهم ناصر الدولة بطلب، وقال من اختار المقام معنا، وإلا فليمض مضيًا ظاهرًا، فما أحد يتبعه.

وورد الخبر بقبول علي بن بويه خلع السلطان بفارس، ولبسه لها، وإحضاره القضاة والعدول ليشهدوا ذلك ويكتبوا به.

وصحت الأخبار بموت نصر بن أحمد خراسان وأن ابنه نوح ابن نصر قام مقامه بعد أن تنازع هو وأخوه إسماعيل عند الإياس من أبيهما أمر الإمرة فأفاق أبوهما، فأمر بقتل ابنه إسماعيل وأن يجدد البيعة لنوح، وأوصى أن يجلس في الثغور لقتال الأتراك ألف دابة من دوابه، وأعتق ألف غلام.

وأرجف الناس بأن ابن طغج وافى دمشق؛ لينفذ جيشًا لأخذ الموصل فكتب إليه السلطان في الرجوع إلى مصر فرجع.

ووقعت منازعة بين الطالبيين والعباسيين في رجل طالبي، زعموا أن أصحاب ابن عبد العزيز قتلوه، فجرت فيه خطوب ثم سكن الأمر وذلك في رجب.

وكثر الجراد في هذا الوقت فصاده الناس، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده، وكان نعمة من نعم الله جل وعلا.

ووافى رسل صاحب خراسان إلى ناصر الدولة فحجبهم أيامًا، ثم أدخلهم، وقال لهم: صاحبكم في يده نصف الدنيا، ينال السلطان ما ناله فلا يسعفه بمال ولا ينجده بجيش، ولم يروا عنده ما يحبون، ثم أجابهم بجواب جميل وصرفهم، وغلت الأسعار، وعز كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس.

وقبض على أبي إسحاق القراريطي في رجب وعلى كاتبه ابن جبرويه وعلى خليفته أبي محمد الحسين بن أحمد المادراني، وتولى مناظرتهم أحمد بن علي الكوفي وابن مقاتل بميل وحقد، وكان الكوفي عقد على المادراني كلامًا كلمه قبل هذا بمديدة بحضرة أبي إسحاق، قال فيه ما شهره الناس من وضع منه وإزراء عليه. فصح عند ناصر الدولة أن المادراني ما ظلم أحدًا قط في معاملة، ولا ارتفق من عمل ولا عامل فانصرف إلى بيته موقورًا بعد توكيل ومناظرة ومطالبة.

وقد ذكرنا أنه خلع على أحمد بن عبد الله الأصبهاني للوزارة برأي الكوفي؛ لأنه كان مستترًا عنده، وأرزق مائتي دينار في الشهر، وكانت الخلع عليه يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب. وأغرى ابن مقاتل العمال بالناس، فأجروا معهم كل ظلم، وأراد فتح الخراج قبل وقته فضج الناس. فنودي بتأخير الافتتاح إلى النوروز المعتضدي، ورفع الجور وإزالة الظلم فتنفس الناس قليلًا وما وقع وفاء بذلك.

وكان ناصر الدولة يحمل في كل شهرين خمسمائة ألف دينار لاستحقاق مَن بواسط، وكان يضجره ذلك فيتكلم ويضج. وعقد عليه بما يتكلم به، إلى أن تحدث الناس أن يرصد بحيلة توقع عليه، فيا ليت ما كان يضر من تبرم رجل يحمل في كل شهرين هذا المال الجليل، ما الذي أريد منه حتى أوحشوه فخرج؟ وكان من أول ذلك أن المتقي لله ما أحب القبض على وزيره أبي إسحاق ولا أراده، فأرضوه بأن أقاموا مكانه كاتبه على ضياعه أبا العباس الأصبهاني، وأنفذ سيف الدولة من واسط في هذا الوقت جماعة من الديلم إلى بغداد، كان اتهمهم وخافهم.

وتواترت الأخبار باضطراب الأتراك على سيف الدولة وترك بعضهم الركوب إليه على فرط إحسانه إليهم، وإعطائه إياهم جميع ما يملكه من مال ودواب وثياب. ولم يناصح الأتراك في حرب البريديين، ولا أعانوا الديلمي عليهم حين جاء إلى فرات البصرة فأقام حيال نهر معقل.

وضج الحشم إلى ناصر الدولة القبض على أبي إسحاق القراريطي، وأعلموه أنه لن يطلق لهم شيئًا، فقال: قد أطلقت لكم ثلث رزق، وأحضر أبا إسحاق واشتد عليه في القول، فأحضره أبو إسحاق رقاعًا بخط المتقي لله بأنه قبض المال منه وأعطى من أراد اليسير منه واستبد بالباقي. فقال ناصر الدولة: كيف أصنع أنا، أطلق مثل هذه الأموال الجليلة تحمل على نفسي، ومالي وظلم الناس، وهذا يهجنه ويقبح فعلي، ويغري بي حشمه وجنده.

ووافق هذا ورود كتاب أخيه عليه بأن البريديين دخلوا الجامدة، وأن الأتراك نهبوا جميع ما كان له من ذخيرة وسلاح ودواب، وما كان ذخره منذ أيام أبيه، وأنهم طلبوه فهرب في نحو مائتين من أصحابه إلى أن تلاحقوا به وأفلت، فغضب من ذلك وأمر من وقته فصوعد بالسفن التي فيها خزائنه. وقال: لا أقمت ببغداد، فضج الناس من ذلك، واجتمعوا إليه وسألوه ألا

يباعد إلى الموصل فيضيع البلد، فضمن لهم ألا يصاعد، وقال لحقتني ضجرة.

وكان وجه في شعبان فطلب من الخليفة مالًا، وقال: إنه يأخذ مما أطلقه لحشمه وغلمانه، فيجمعه إلى ما يستفضله من نفقاته وغلاته، فما وجه إليه بشيء، فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه.

وطولب الناس بأداء الخراج في شعبان، ولم ينتظر بهم النوروز المعتضدي.

وورد على ناصر الدولة دخولُ عدل حاجب بجكم نصيبين واستيلاؤه على الرحبة وأعمالها، فشغل ذلك قبله.

وورد كتاب ياروخ بهزيمته البريديين وإخراجهم عن الجامدة.

وضج الأشراف العلوية من عاملهم أبي عمي الحسن بن هارون الهمذاني على الكوفة، وخاصة عمر بن يحيى وهو الرجل الفاضل المنتفع به الناس بماله وجاهه والناصب نفسه لهم حتى يحج بهم، ولولاه ما تم حج فعزل الحسن بن هارون، وولى المعروف بأبي بكر عبد الله بن عبيد الله البرجمالي.

وكتب ناصر الدولة إلى ابن عمه أبي عبد الله الحسين بن سعيد يأمره بالاحتيال على عدل وقصده، فكبسه وأسره وابنًا له وأنفذه إلى بغداد، فكحل وشهر على جمل في يوم الخميس لأربع بقين من شعبان، وألبس برنسًا وابنه على جمل بين يديه على برنس، وكان في الموكب خلفه الوزير أبو العباس الأصبهاني والقاضي ابن الخرقي يتسايران.

وكان يانس غلام البريدي في يد ناصر الدولة، فتكاتبوا في أن يوجه به إليه، ويوجه البريدي بعيال توزون وابنه، وأن يقوم بذلك أبو علي عمر بن يحيى.

ووجه ناصر الدولة بأحمد بن علي الكوفي إلى واسط. ومعه من الاستحقاق أربعمائة ألف دينار فوجد الأتراك قد شغبوا، فرجع والمال معه، حتى عاد إلى

ناصر الدولة، فدخل به بغداد أول يوم من شهر رمضان.

وصرف أبو إسحاق القراريطي إلى منزله في آخر شعبان بعد أدائه أكثر ما فورق عليه.

وضرب لناصر الدولة مضرب بباب الشماسية، واصطنع عيسى جال الديلمي فزاد في رزقه ألف دينار ووصله بألفي دينار. وزاد الفارس من أصحابه عشرة دنانير في رزقه، وزاد الراجل دينارًا.

وعزم ناصر الدولة على الرحيل إلى الموصل فوجه إليه الخليفة أن يتوقف عليه ليصاعد معه، فكره ذلك وركب إليه الخليفة في يوم الخميس، فنزل إليه ناصر الدولة إلى دجلة حتى تلقاه وصعد معه إلى داره وقال له: تتوقف يومًا على أو يومين فكأنه علق القول وانصرف.

وأصبح الناس في يوم الجمعة لأيام خلت من شهر رمضان، وقد صاعد ناصر الدولة وقطع الجسر، وسار من الجانب الغربي، وتبعه جميع من كان في الجانب الغربي من أصحابه، ونفر ممن كان من أصحابه في الجانب الشرقي، فمضى بعضهم إلى سر من رأى، ورجع الترجمان وجماعة من الأتراك مع أخي ابن إسماعيل بن أحمد إلى الدار، وأرجف الناس أن الخليفة راسل الترجمان في القبض على ناصر الدولة والمجيء به الدار، فأمكنه غير مرة فلم يمكنه؛ لأنه جاهل جبان.

وصعب على التجار خروج ناصر الدولة عن بغداد، ووافى سيف الدولة إلى المداين، ثم صار إلى بغداد، فنزل في الجانب عند باب قطربل، ووجه إليه المتقي لله بثياب وطيب ودراهم لنفقته.

وطالب الوزير ابن مقلة بأن يحمل إليه مالًا فكان يجمع ما قدر عليه، فلما اجتمع حمله إليه ليعطي أصحابه واستوحش السلطان منه، ثم رحل إلى القفس

ولحق به إبراهيم بن أحمد الخراساني في نفر من أصحاب أخيه ببغداد.

وورد الخبر عليه بأن أخاه ناصر الدولة وصل إلى الموصل سالمًا فلحق به لا يلوي على شيء، فقيل: إن جملة ما صار إليه من المال أربعمائة ألف درهم.

ودخل الأمير يومئذ توزون بغداد في يوم الخميس لست بقين من شهر رمضان، وتلقاه أهل الدولة فدخل إلى الخليفة فسلم عليه ونزل الدار المعروفة بمؤنس، وتأذى الناس بنزول الأتراك عليهم.

ثم كان يوم الأربعاء فقبض توزون على كاتبه سعيد بن داود المسيحي، وعلى أخيه فهد، وابن خالته، فطالبهم بالأموال بضرب مُبرِّح، وكان الترجمان حمله على ذلك، واستكتب محمد بن القاسم.

وخلع السلطانُ في يوم الاثنين لست خلون من شوال على الأمير توزون وصيره أمير الأمراء وأمر بتكنيته.

وحرص توزون بالمتقي لله أن يتركه يصالح البريديين على مال يحملونه ويفرغه لابن حمدان فأبى عليه، وكان البريديون قد صاروا إلى واسط فوجه بخمسمائة غلام في الظهر والماء إلى واسط.

وقبض على ابن العزيز الهاشمي وجماعة من التجار والعدول، وطولبوا بمال.

وحدر الأمير توزون تكين الشيرزاذي إلى واسط، ووافى أبو دلف سيما الساجي إلى بغداد، وهو صاحب القرمطي الهجري؛ ليأخذ مال الموافقة التي فورق القرامط عليها.

وكبس أهل القطيعة في أول ذي القعدة فأخذ منهم عشرون كرًّا دقيقًا، وأحيلوا بثمنه على الترجمان في أول ذي القعدة، ثم مضى جماعة من أصحاب

توزون إلى القطيعة ليأخذوا دقيقًا كما كانوا أخذوا، فوثب بهم العامة وقتلوا نفسين وغلا السعر بهذا السبب، ودخل الحاج من خراسان وخرجوا مع ابن حاتم.

وانحدر الأمير توزون إلى واسط وهرب البريديون، ونودي ببغداد: من أراد الخروج إلى واسط فليخرج.

وقبض المتقي على رجل يعرف بابن المطلب من أهل باب الطاق وحمله إلى داره وقيده وحبسه وقال له: أنت رئيس الرافضة، ثم لم يتركه بعض خدمه حتى قتله من غير حجة تقوم عليه، ونفذ ابن أبي موسى الهاشمي في يوم الاثنين لست بقين من ذي القعدة برسالة السلطان إلى ناصر الدولة، ومعه تكين الماكاني وخادم من خدم الخليفة.

واتصل قطع رجل يعرف بابن جمدي على السميريات النافذة إلى واسط والمصاعدة منها، وصار إليه من ذلك مال عظيم وأمتعة لها مقدار.

وفي ذي القعدة أقبل يوسف بن وجيه صاحب عمان من عمان، ومعه مراكب كثيرة فيها عدة وعديد، لتغليظ البريديين الضرائب على ما يحمل من البحر، فلقي البريدي في دجلة البصرة بقرب الأبلة، فهزمهم أول يوم ثم احتالوا بنار حملت في زبازب وجعلت في زجاج ورموا مراكبهم بها فانهزم وقتل خلق من أصحابه، وأسر بعض وأحرقت له ستة مراكب، وكانت هزيمتهم له في أول يوم من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

وصرف الكرخي عن كتبة الأمير توزون، واستكتب أبو إسحاق القراريطي ابن أبي الترجمان، وظفر بجماعة من أصحاب ابن جمدي فقتلوا وصلبوا. ودخل أخو الأمير توزون إلى تكريت ومعه جيشه فدخلها لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فنهبها ونهب زواريق كانت بها، فيها أمتعة

التجار، وذبحوا بها من البقر والغنم نحو ألفين، ونهب الناس في سائر طرقهم إلى تكريت. وعزت الفاكهة ببغداد؛ لأنهم أخذوها ظاهرًا وباطنًا وأجلوا أهل القرى.

وركب الخليفة في يوم السبت، لتسع بقين من ذي الحجة الظهر إلى باب الشماسية، ورجع في الماء فدعا الناس له. ووافى صافي غلام الأمير توزون يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي الحجة بغداد من واسط فقبض على أبي إسحق القراريطي، وأخبر أن أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد وافى واسط في زبازب كثيرة، كالهارب من يد البريديين لما اشتغلوا بمحاربة ابن وجيه، وأسرع السير فوجهوا في طلبه، فلحق واستكتب للأمير توزون، فاشتد ذلك على السلطان فأغروه بالقول فيه، فكاتبه في صرفه فلم يقبل.

ومن عجيب الأخبار، وما يستدل به على علو همة الأمير توزون: أن أبا جعفر اختار له كاتبًا، وأبو جعفر إذ ذاك يكتب لبجكم، فكأنه لم يرضه، فقال له أبو جعفر: أنا كاتبك، فقال له: وأنت تكتب لي، ولكن ليس على هذه الجهة، ولا الآن!

وتوفي في هذه السنة في غرة ذي القعدة منها سنان بن ثابت المتطبب وكان متقدمًا في الطب، وفي علوم أخر كثيرة.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة

كان أول المحرم يوم الاثنين قعد فيه كاز'ذ كاتب أبي جعفر، وظهر أبو الحسن بن شيرزاد. وخرج أبو بكر محمد بن جعفر النقيب وصيغون المرداويجي في جماعة من أصحابهما إلى ناصر الدولة إلى الموصل، وانحدر صافي مع جماعة من الأتراك والديلم إلى واسط.

وورد الخلنجي السابق بسلامة الحاج قدام الحج لسبع خلون من المحرم.

[و]في يوم أخذ سبعة من أصحاب ابن جمدي، فضربوا وطيف بهم وقتلوا وصلبوا في الجسر، وقتل -أيضًا- رجل يعرف ببرغوث كان يقطع بناحية المزرفة.

ووجه الترجمان وهو محمد بن يناال، وكان يلي الشرطة ببغداد والأمر كله له إلى الحسين العلوي الديلمي، فقبض عليه؛ لأنه بلغه أنه يريد الفرار إلى ناصر الدولة.

ووافى اسكورج الديلمي بغداد يوم الثلاثاء لأربع عشرة [ليلة] بقيت من المحرم وهو أكبر قوادهم، وقلده الأمير عمل سر من رأى وعكبرا وأمره أن يكون بسر من رأى، فإن جاء أحد من ناحية ابن حمدان حاربه، والأمير توزون مقيم على أرز بالجامدة ليستنطقه.

ووافى من عسكر البريديين إلى الأمير توزون في الأمان أبو المهدي البربري، فأنفذه إلى بغداد، وأغارت خيل الروم على نواحي نصيبين، واستغاثوا بناصر الدولة فلم يغثهم؛ لأنه كان قد جرب خيانته مع ابن عمه أبي عبد الله ليصيروا إلى بغداد ليخرج الخليفة معهم.

ووافى أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد بغداد لأربع بقين من المحرم فجلس في داره وجاءه الناس، وهو كاتب الأمير توزون فاستأمن بعض أصحاب اسكورج وصافى إلى واسط وأبو المهدي، وأبو طالب أخو المظفر بن حمدان الميدمان، وإبراهيم أخو الأمير توزون.

واستتر أصحاب أبي جعفر بن شيرزاد، ووافى الحسين بن أبي العلاء بن حمدان في صفر، فنزل حيال الشماسية ومع أبي العلاء هذا عيسى جال الديلمي وأبو وائل ويروخ الناصري، فوجه إليه المتقي لله أن يدخل بغداد ليخرج معه، فقال: لم أومر بهذا، واستوحش، وقال: إن خرج إليّ أمير المؤمنين اليوم وإلا

رجعت. وأشير على المتقي ألا يخرج عن بغداد فما تركه الترجمان، وكان قد استوحش من الأمير توزون لأشياء اختانها وتعدى فيها.

ولقد حدثني بعض الخدم أن بعض الرؤساء، قال للمتقي لله: يا سيدي خروجك إلى ابن حمدان أشد على توزون من ضرب عنقه، وفي خروجك انحلال أمره وأعظم المكيدة له.

ولا والله ما نصحوه وإنما خافوا على أنفسهم من توزون، فخوفوا الخليفة منه، ولو كان معه من ذوي نصحه من كان يعرف حقيقة الرأي ما تركه يخرج؛ وذلك أن توزون ما خالفه في شيء أراده، وما زال ساعيًا في مراده ومحبوبه، كان أمره جاريًا مع البريدي ببغداد على أفضل إرادته فلأجل الخليفة ما احتال في أخذ البريدي، فلم يمكنه ذلك لخذلان قوم كانوا وعدوه أن يكونوا معه، فحارب ليله ونهاره، ثم صار إلى سر من رأى، وكتب إلى الموصل يشير بالانحدار إليه وأنه يتضمن حرب القوم فما فعلوا، حتى خرج إليهم فحشرهم وأنهضهم، وقد كان أشار بمصالحة البريدي، وأخذ أموال منه، ثم يكون بعد ذلك على رأس أمره، فأبى الخليفة عليه، فاتبع أمره وانحدر وكان كاتبه في الحيلة على بني حمدان، فأخرج سيف الدولة عن واسط، فما الذي أوجب أن يستوحش منه؟

ولقد صرت إلى القاضي أبي الحسين، فقلت له: إن هذا الخليفة ما يجالسنا، وزعم أنه لا يريد جليسًا، يخالف الناس جميعًا في هذا إلى عصره، وليس له رزق علي، ولكن نصحه واجب، وهو يقبل رأيك فاتق الله ولا تدعه يخرج؛ فإنه إن خرج لم يعد وخربت بغداد، وأضر بالعامة، فتضمن لي ذلك. وما ظننت أن أحدًا فعل هذا معه غيري، حتى حدثني القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى: أنه صار إليه فأشار عليه بمثل مشورتي فأبى الله عز وجل إلا ما أراد.

ولقد حدثني بعض الخدم ممن أثق به أن المتقي لله اضطرب من الخروج، فقال له الترجمان ومساعدوه على هذا الرأي: إنا قد تحدثنا بالقبض عليك فامتنعنا من ذلك، وأشرنا بالخروج عليك، وقد كشفنا الأمر لك.

فلما سمع هذا خرج غداة يوم الخميس وركب على الظهر، ووافى الشماسية، وخرج معه وزيره علي بن محمد بن مقلة، والحاجب أحمد بن خاقان، ولؤلؤ صاحب الشرطة، وأبو جعفر الخياط، وتبعه حاشية الدار وجماعة من وجوه البلد.

وجلس المتقي لله في الخراقة، وتلاحق به من بقي من حاشيته وخرج معه قاضيه وأسبابه، وجاء ابن أبي العلاء وجميع مَن معه فقبَّلوا يده وعرفوه سرور ناصر الدولة بمصيره إليه.

وركب الترجمان يوم الجمعة من الجانب الغربي بمطارد مذهَّبة ومعه أصحابه، وأودع جميع ما كان له قبل خروجه أيامًا متوالية، حتى أودع أصناف النبيذ فوجد بعد ذلك فما بقي الله منه شيئًا.

وصلى صاحب الصلاة بالناس في المعسكر يوم الجمعة لثلاث خلون من صفر، ومدت خراقات الخليفة بعد الصلاة، ودخل الناس معه، وخلت بغداد واستوحش أهلها.

وكتب الخليفة إلى صاحب الشرقية أحمد بن جعفر الزطي بكتاب يأمره أن ينادي بما فيه، فنادى: أمر أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- بالنداء ببراءة الذمة ممن فتح من العمال والمتصرفين شيئًا من الدواوين، أو نظر في الأعمال أو طالب بخراج أو تصرف في عمل من الأعمال السلطانية بعد شخوص أمير المؤمنين، فقد أحل بنفسه العقوبة الموجعة وهجم داره وإباحة ماله، فقد أحب أمير المؤمنين ترقية رعيته، والاحتياط لهم، وترك إعناتهم فليحذر المخالفون لذلك،

وليلحق بأمير المؤمنين سائر عياله وأوليائه، ولا يتأخروا عن معسكره، وليبلغ سامعُ هذا النداء الغائبَ عنه. فنودي من جانبي بغداد.

ولم يدع المتقي لله بعض خدمه حتى ضرب يوم الجمعة قبل الصلاة عنق ابن المطلب، المتهم بالرفض، وكان ناصر الدولة وأسبابه يعنون به ورمى بجسمه في أزقة الشماسية، فبكر الناس يوم السبت، فأخذوه وغسلوه وكفنوه بعد أن صلي عليه بمسجد براثا ودفن هناك.

وضبط صاحب الشرقية عمله ضبطًا حسنًا، وكذلك العروضي وهو إبراهيم بن شيخون وكان إليه الجانب الشرقي.

ووافى من عسكر توزون بغداد جماعة فلحقوا بالخليفة، ووافى بغداد يوم الثلاثاء بشرى حاجب توزون واسكورج، وصاروا إلى دار أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، وظهر في داره فأمر ونهى وولى، وما التفت الناس إلى شيء مما أمر الخليفة بالنداء به.

وكان الأمير وجه من واسط بالميدمان بن حمدان البريدي في جيش كثيف إلى ناحية المذار، فهزمه أصحاب البريدي، فوافى نحو واسط منهزمًا، وصلى الناس بسر من رأى يوم الجمعة في معسكره.

ووافى بغداد ينال البكراني وتكين الشيرزاذي وأخو الأمير توزون، وجماعة من القواد فنزلوا باب الشماسية ومعهم طياراتهم وزبازبهم.

ونزل السلطان تكريت ونفذ الترجمان ولؤلؤ وابن الخياط إلى الموصل على طريق البرية؛ لأخذ أرزاقهم وحدره إلى تكريت لمحاربة توزون، وكثرت الكبسات ببغداد في الليل دور المياسر.

ووافى عكبرا ابن بلال من قواد ابن حمدان فكبس عكبرا وبها أصحاب اسكورج فقتل جماعة منهم وانهزموا وأقاموا بنواحي عكبرا فوجه اسكورج

بخيل فهزمت ابن بلال وملكوا عكبرا.

وظهر ابن جمدي العيار، وكان حمالًا بنواحي سوق الحديد باب درب الشوك بحضرة المزملة ثم صار لصًا ببغداد، فولاه أبو جعفر بن شيرزاد طريق واسط، وخلع عليه، وطالب أبو جعفر بن شيرزاد التجار بأموال فاستتر أكثرهم.

وورد الحاج في النصف من صفر شاكرين لأبي علي محمد بن يحيى العلوي؛ لحفظه لهم ورفقه بهم، وكانوا حجوا والوقت ضيق عليهم فمات أكثرهم في الطريق، ولولا أن الله أغاثهم في مصعدهم بسحابة أرسلها، فمطرت حتى عاشوا بها وعاشت جمالهم، ما بقي منهم أحد.

وكان رسول الله ابن طغج قد وافى بهدايا إلى ناحية الأنبار، فلما علم بأمر السلطان صار إلى تكريت، فأوصل الهدايا إلى المتقي لله.

وكبس الروم رأس عين، فأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها ووجدوا فيها قوافل مصعدة ومنحدرة، فيها أمتعة لا يدرى قيمتها فأخذت كلها، ونال المسلمين ما لم ينلهم مثله قط، فلما أراد العدو الرحيل أحرق البلد، وفتحت الحوالي لسنة اثنتين في شهر ربيع الأول، فلحق أهل الذمة خبط عظيم وظلم قبيح.

ووافى توزون بغداد فقدم جماعة من أصحابه إلى سر من رأى ووافى ملهم بن دينار الأسود المستأمن، وكان حاجب رافع القرمطي وانضم إلى ابن حمدان إلى حيال باب الشماسية فجعل يشتم توزون هو وأصحابه، فأمر توزون حينئذ بأن يصير إليه عسكر بخيمهم ومضاربهم إلى الجانب الغربي، ورجع ملهم إلى تكريت، ووافى الخبر لخمس بقين من شهر ربيع الأول بدخول البريدي واسط.

ووقع على التجار ببغداد ظلم عظيم وخبط شديد، وتهارب الناس وخرج عن بغداد جماعة من مياسير اليهود والمجوس إلى الشام، وكاتب توزون البريدي ووافقه على مال بعينه، فوجه إليه البريدي بمال، ووافى جميع من كان من جيش توزون في طريق واسط إلى معسكره بباب الشماسية، وفر بعض غلمان توزون إلى تكريت، فركب فلحق بعضهم فقتل من كان قبض رزقه وفر، ومنَّ على من لم يقبض رزقه.

وانحدرت من عسكره زبازب إلى البريدي في الأمان من الديلم، وغلت الأسعار ببغداد وإمارة بغداد، من قبل أن يقدم توزون إلى هذا الوقت.

وأمر صافي غلامه وحاجبه، فوظف على أصحاب الشرطة أموالًا وأخذها.

ووجه ابن فتان بمائة جمل إلى تكريت عليها هدايا أكثرها فاكهة للسلطان.

ورحل توزون من معسكره إلى عكبرا يوم الثلاثاء لأيام بقين من شهر ربيع الآخر، وخلف بباب الشماسية أخاه وكيغلغ وارتمش في ثلاثمائة من الأتراك، ونودي ببغداد براءة الذمة ممن تخلف من الجند عن الأمير توزون، وأطلق دعلج العدل وهو من أجل الشهود لعشر بقين من شهر ربيع الآخر، بعد أن أدى مائة ألف درهم، وولى اسكورج إمارة بغداد.

وواقع القرامطة أصحاب ناصر الدولة بجماعة من الأتراك، كانوا طلائع لتوزون بنواحي سر من رأى، وقتلوا قائدًا لهم فحمل في تابوت إلى بغداد ودفن فيها.

وعبر الأمير توزون من سر من رأى إلى جانب الغربي؛ ليكون مع ناصر الدولة على أرض واحدة، وكان ناصر الدولة لما وافى تكريت أعطى الناس أرزاقهم في شهر ربيع الآخر، وكان بتكريت نحو مائة وخمسين زورقًا فيها

دقيق وحنطة وشعير وسقط وشحم وعسل وثياب وغير ذلك، فأمنوا بناصر الدولة.

ولما قبض الناس أرزاقهم تقدم سيف الدولة فعسكر أسفل تكريت على الإسحاقي وأنفذ ناصر الدولة أبا منصور عبد الواحد بن المتقي لله وحرمه إلى الموصل قبل الوقعة، وأراد إنفاذ المتقي معهم فكره ذلك واختار المقام مع ناصر الدولة، فأشفق عليه فقدمه إلى موضع يعرف بالأعمى فوق تكريت بستة فراسخ، وأقام ناصر الدولة فوق تكريت قليلًا بإزاء الدير ووجه بقواده كلهم مع أخيه سيف الدولة، منهم: ياروخ وعيسى جال والترجمان ولؤلؤ وأرسلان وإبراهيم بن أحمد بن أمير خراسان.

فواقع سيف الدولة توزون، يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر ربيع الآخر، ثم تحاجزوا، وقد وقعت بأسكورج ضربات. ولم يشك سيف الدولة أنه ظافر؛ لأنه قاتل في يومه ذاك أشد قتال، فبكر على القتال يوم الخميس لأربع بقين من الشهر. وكان سيف الدولة كمن بين قشير ونمير، ليخرجوا إذا احتدت الحرب على أصحاب توزون، فلما علق بعض القوم ببعض عطفت قشير ونمير على سواد سيف الدولة فنهبوه، تعصبًا زعموا للمضرية على الربعية، فظن سيف الدولة أن توزون كاده بذلك، وكمن كمينًا خلفه ليتبعه إلى تكريت، فرجع إليهم فوجد أعرابه وكمينه قد نهبوا سواده، فأوقع بهم فطاروا بين يديه.

وكان غلام سيف الدولة يمك التركي مما يلي دجلة في عدة، فمال عليهم توزون فهزمهم واقتطع نحو خمسمائة ديلمي، كانوا في الميسرة فاستأمنوا وأمرهم بطرح السلاح.

وكان شغل سيف الدولة بالأعراب سبب الهزيمة، وتقطر بيمك التركي

غلام سيف الدولة فرسه فأسر.

ووجه توزون بالديالم إلى بغداد في زواريق، بعد أن قيد جماعة منهم.

وصار سيف الدولة إلى أعالي تكريت فوجد أخاه ناصر الدولة قد رحل وتلاحق به العسكر، فملك توزون تكريت ونزل بالدير الأعلى في المكان الذي كان فيه ناصر الدولة، ونهب أصحاب توزون تكريت حتى منعهم بنفسه ونهبوا زواريق شعير كانت لسيف الدولة وزواريق للتجار وحاز توزون أكثرها، وزواريق دقيق ففرقها على أصحابه وجمعهم، فقال لهم: أنا واحد منكم، وهذا الأمر أريده لكم.

وامتنع أبو جعفر بن شيرزاد من الجلوس للناس قبل الوقعة بيومين. فلما جاءه الخبر جلس، وأمر بالنداء بما فتح الله على الأمير، وأنه وزد كتابه يجتهد في أن يرخص الأسعار بمدينة السلام.

ولما رحل ناصر الدولة إلى المنزل المعروف بالأعمى وجد الخليفة المتقي لله به، فرحله معه وأقام بالسن يومًا حتى تلاحق به أصحابه، ورحل إلى الجونية وقدم الخليفة قبله إلى الموصل، ثم لحق به وترك بالجونية بعض غلمانه، وبالسن طلائع له من القرامطة.

ولحق سيف الدولة بنمير وقشير فقتل منهم مقتلة عظيمة واسترجع بعض ما كان أخذوه، ولما اجتمع الناس بالموصل أعطاهم ناصر الدولة رزقة كاملة وأمر المعطين، ألا يحتسبوا بها عليهم. وصار إليه جماعة من عسكر توزون فقبلهم، وخلع عليهم ونزلهم بما أرادوا.

ولما عاث أصحاب توزون بتكريت ركب بنفسه فأخرجهم منها، فكثر شكرهم له ثم رجع عليهم الأموال. فكثر دعاؤهم عليه، فكان كما قال مسلم بن الوليد:

وَلاَ غَـرْوَ لَمْ تَـدْرِكْكَ مِنِّـي مَلاَمَـةٌ أَسَـأْتَ بِنَـا عَـوْدًا وَأَحْـسَنْتَ بادِيًـا

وكما قال رجل في صديق له كان أحسن الناس فعلًا مبتدءًا، وأقبحهم آخرًا، فقال فيه:

أَوَّلُـهُ يُـرْضِي وَلكِنَّـهُ لاَ يُتْبِـعِ الأَوَّلَ بِـالآخِرِ

سبحان الله ما أعجب البركة واحظوظ! هذا أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد ما كتب لأحد قط إلا بلغ أعلى المراتب وأجل المنازل، ما زال جد ابن الخال يعلو ما دام يكتب له، فلما تركه أدبر وانحل أمره، وكتب لبجكم فبلغه ما لم يبلغ أمير من المال والهيبة، وأصلح نه قلوب أصحابه. وكتب لتوزون فبلغ به ما لم يظن الناس أن توزون يبلغه أبدًا.

ووافى أسكورج بغداد يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من جمادى الأول وهو أمير الشرطة.

ووافى قبله خمسمائة من الديالم الأسرى في زواريق، فكان توزون قد رد أمرهم إليه؛ فحبس بعضًا وبقي بعضًا وأطلق بعضًا.

ووافى إقبال الشيرزاذي مع زواريق دقيق إلى بغداد، وبزواريق سقط، فقيل: هذا لابن حمدان، وأخذ مستهلكًا.

وغمز بخزانة لأبي الحسين علي بن محمد بن مقلة بناحية سوق العطش، فوجه أبو جعفر بن شيرزاد بابن جمدي، فأخذ جميع ما فيها ونزل ابن جمدي داره بمربعة أبي عبد الله، وأخذ جميع ما كان فيها، وسفر في الصلح بين توزون وناصر الدولة على أن يرجع إلى داره ويحمل ابن حمدان إليه فضلًا مما كان يحمله على أن الإمارة تكون لعبد الواحد ابن المتقي لله، فكان ناصر الدولة أسرع الناس إجابة وأشهاهم لتمامه.

فكره أخوه وأصحابه ذلك، وكرهه الخليفة. فقال لهم ناصر الدولة: أنتم تهربون ولا تقفون، ومالكم عندي رزق إن عزمتم على القتال إلا بعد أن أعرف أمركم، وإلا فانصرفوا إلى حيث شئتم، فحلفوا له أنهم يجتهدون ولا يقصرون.

وورد الخبر على توزون أن ناصر الدولة، على أن يواقعه وقعة ثانية، وكان توزون في وقت هرب الترجمان قد قبض على ختنه المعروف بحبة التركي وحبسه وكان شجاعًا، فتكلموا فيه وضمنه أبو عمران موسى بن سليمان أصبهسلان، فأخرجه وخلع عليه ووصله وحمله على دواب كثيرة ووهب له بغالًا، وسفر أبو عبد الله محمد بن أبي موسى في الصلح وأحبه واجتهد فيه، وهو من رجال الزمان ومن أهل الخير -مع ذلك- وكثرة الصدقة واصطناع المعروف، فتردد في الصلح وقرب الأمر على يده، ثم عارضه قوم فأفسدوا الأمر.

وصح عزم الخليفة وناصر الدولة على محاربة توزون ثانية، فصار سيف الدولة في الجيش كله إلى تكريت، لأيام خلت من رجب، وبلغ توزون خبرهم، فشخص إليهم في عدته، فلما صافتهم الحرب استأمن أرتمش التركي -وهو من أجَلِّ قواده وكان غلامًا لسيف الدولة- إلى سيف الدولة في جماعة من الأتراك، فاضطرب عسكر توزون لذلك، فخاف أن يهزم، فحمل عليهم في نحو ثلاثمائة غلام وحقق وحققوا معه، فما هابوا سيفًا ولا رمحًا حتى أزالوهم وهزموهم، فولوا هاربين وتبعهم ولم يوغل ولا أبعد، خوفًا على اضطراب باقي عسكره وسواده.

وقد كان ناصر الدولة قال لأصحابه: إن انهزمتم فلا يريني أحد منكم وجهه، فما قبلوا ذلك، وصاروا إلى الموصل وأصحابهم معهم.

وظهر أبو جعفر بعد أن كان استتر يومًا، وهنأه الناس بالفتح.

ورأى توزون أن يمضي إلى الموصل، وكاتب الخليفة بأنه عبده، ولا خلاف عليه منه، فما قبل ذلك، فرحل الأمير توزون إلى الموصل، لا يلوي على شيء، وبلغ الخليفة وابن حمدان ذلك، فرحل إلى نصيبين، وحوى توزون الموصل وما فيها من الأطعمة وعسكر خارجها على أن يقصد نصيبين، ويوقع بمن فيها، وكتب إلى ابن حمدان في إنفاذ الخليفة إليه، فكره الخليفة أن يصير إليه بعدما فعله، فأسرع من نصيبين إلى الرقة في أصحابه الذين خرجوا من بغداد معه، ومعه من الكتاب وزيره علي بن محمد بن مُقلة وأبو إسحاق القراريطي وأحمد بن عبد الله الأصبهاني والحسن بن هارون وأبو محمد الحسن بن أحمد المادراني وعبد الجبار بن الحسن النفري كاتب دار السلطان مستنجدًا بابن طغج، وكتب بذلك إليه.

وكتب الأمير توزون إلى أبي جعفر بن شيرزاد في اللحاق به، فلحق به إلى الموصل، واعتمد في خلافته ببغداد على أبي عبيد الله أحمد بن محمد بن عبد الوهاب، وعلى طازاد بن عيسى النصراني، وكان رأي ناصر الدولة أن يرجع الخليفة إلى بغداد، ويفارق هو الأمير توزون على مال يحمله ويصرفه إلى بغداد، فخالفه المتقي لله، وخرج من أعماله معتمدًا على ابن طغج أبي بكر الأخشيد.

وكاتب ناصر الدولة الأمير توزون في الصلح، وعلم توزون أنه أشار على المتقي لله بما أراده توزون، فلم يقبل المتقي منه، ولا تركه بعض من كان معه يقبل ذلك.

وسفر بين ناصر الدولة وبين توزون أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي وأبو زكريا يحيى بن سعيد السوسي، ولما صار أبو جعفر إلى الموصل رأى أن الأموال التي يحملها ابن حمدان أوفى مما يؤخذ من الموصل مع التغرب وانتشار الأعراب.

وكان خروج أبي جعفر من بغداد في شعبان، فتم أمر الصلح بين توزون وبين ناصر الدولة برأي أبو جعفر، وما زالت السفارة بينهما طول شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، وتم الصلح في أول شوال ورجع توزون إلى بغداد وأبو جعفر معه، فكان دخوله إليها لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وكان حرص أبي جعفر على الصلح لما بلغه من مواقاة ابن بويه الديلمي إلى واسط، وأخذ الضرائب والخراج، وأن ابن بويه دخلها في شهر رمضان.

واتهم المتقي لله بمكاتبة ابن بويه بأن يصير إلى الحضرة، وصلحت سيرة ابن بويه بواسط، وخفف عنهم كاتبه محمد بن أحمد الصيمري المكنى أبا جعفر من الضرائب، وعدل عليهم في الخراج.

وكان أمير بغداد أبو العباس أسكورج قد اصطنع ابن جمدى وأمل أن يرتدع ويقصر ويعرف به جميع المتلصصة، فكان يرسل أصحابه على الناس، فلهم في كل يوم حادثة عظيمة، وكبس وإغارة على الأموال. ووقف أسكورج على أنه أصل ذلك كله، وقيل الأمير توزون فيه غير مرة، وعرف أبو جعفر الأمير حقيقة خبره، فأمر به فضرب وسطه في دار الأمير توزون، وحمل إلى الجسر على جمل، ونودي عليه: هذا ابن جمدى اللص فاعرفوه.

وظفر بجماعة من أصحابه فقتلوا وصلبوا، فسُر الناس بذلك، وقالوا ما أمنا على أنفسنا وأموالنا إلا الآن، بقتل ابن جمدى وأصحابه، وكثر الدعاء للأمير توزون، وكان قتله برأي أبي جعفر بن يحيى بن شيرزاد الكاتب.

وفاة البريدي

قد ذكرنا وثوب أبي عبد الله البريدي بأخيه يعقوب أبي يوسف وقتله له حين منعه، وكان ذلك في النصف من صفر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

ووافى الخبر إلى بغداد أول يوم من ذي القعدة، سنة اثنتين بأن أبا عبد الله

أحمد بن محمد بن يعقوب البريدي توفي لأيام بقيت من شوال سنة اثنتين بقولنج عرض له، وقام بالأمر أخوه أبو الحسين علي بن محمد أيامًا، ثم أحسَّ بأن جماعة من الغلمان والقواد قد عزموا على الفتك به، فهرب في الليل مع غلام له حتى خرج من سور البصرة من ناحية سيحان، ثم لحق بالقرامطة المقيمين بالجعفرية على فرسخ من البصرة فعرَّفهم نفسه وما جرى عليه، فحمل إلى البحرين ثم رد باختياره إلى البصرة، وكان أبو القاسم عبد الله بن أخيه قد ملك الأمر بعده، فلما وافى البصرة تكلم قوم في أمره بفنون، فأبى أبو القاسم إلا أن يخيره ما يريد، فاختار الخروج من البصرة، فخرج ووافى بغداد، وذلك كله أو أكثره في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر قتل الترجمان

جملة أمره كان جبانًا مضربًا، منتقلًا، بخيلًا، قصير الرأي، رديء الاختيار، وكان سيف الدولة يتهمه بأنه هو الذي ضرب الأمير توزون عليه، حتى كان منه إليه بواسط ما كان، وأنه أطمع المتقي لله في الاحتيال على ناصر الدولة وراسله في ذلك، يحصله في داره فيطالبه بالأموال، وأن الرسل بينهما اختلفت بذلك.

ولقد أمكنه ذلك من ناصر الدولة مرات، خاصة عند قرب خروجه من بغداد، فما اضطلع بذلك، ولا كانت له نفس تفي به، إلى أن خرج ناصر الدولة، وهو أوثق الناس به وعنده أنه في جملته، ثم غدر به، فرجع وكان بالرقة قد تمكن من المتقي لله، يصل إليه متى أراد ويأكل معه ويسمع منه، وكان يثلب سيف الدولة.

وكاتب الإخشيد بن طغج في إنفاذ جيش إلى الرقة لأخذ الخليفة من يد سيف الدولة، فركب يومًا إلى سيف الدولة، وقال له: قد ضرب الجند عليَّ،

فإن كان في نفسك شيء علي فأنا بين يديك، وتغضب وزاد في الكلام، فنصحه سيف الدولة.

وقال له: لا يركب معك غيري، حتى يؤديك إلى منزلك، فركب وخرج من بابه وأغلق غلمان سيف الدولة بابًا خلف سيف الدولة، وضربوا الترجمان - وكان خلفه- بالسيوف واحتزوا رأسه، وبلغ أمره الخليفة فغضب وتكلم، وقال: ابن رايق بالأمس، والترجمان اليوم! وأشير إليه ألا يعيد في هذا شيئًا وأن يرى سيف الدولة أن الذي حكاه حق، ويستصيب رأي الغلمان فيما فعلوه.

وفاز جميع من كانت له عنده ودائع مال فهو في أيديهم، واعتل الأمير توزون في ذي القعدة علة صعبة شديدة من قولنج وغير ذلك، ثم أقاله الله ووهب له العافية فاستحجب فتاه صافيًا، وخلع عليه خلعًا، ركب فيها حتى رآه الناس.

ثم اتصل بتوزون أن الديلمي الذي بواسط يريد بغداد، فقدم مقدمته إلى المداين، وخرج في أثرهم، وذلك في ذي القعدة لإحدى عشرة ليلة بقيت منه.

ووقع في هذا الشهر بالكرخ حريق عظيم من حد طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال، وذهبت النيران بأمتعة البزازين وأموال خطيرة، وكان وقوع الحريق ليلًا، فبادر الناس ليخلصوا أمتعتهم، فكان كل من أخرج شيئًا نهبه الخرابون ومن يعينهم من العيارين، فما وصل الناس إلى شيء من أمتعتهم.

وسار أحمد بن بويه الديلمي يريد بغداد، وحذر أبو جعفر إقبالًا غلامه في الماء ومعه الطيارات والزبازب، ليمنع الديلمي من الماء، وكان ذلك من أجل الآراء، وكان ذلك سبب الفتح وهزيمة الديلمي، ووقعت الحرب في الجانب الغربي من حدود قباب حميد أيامًا متوالية، و لأسير توزون يرى أن يستجرهم

إلى قرب بغداد، لتقرب عليه الميرة إلى أن عبر بهم نهر ديالي، فصيره بينه وبينهم، وذلك برأي أبي جعفر بن شيرزاد، وجاء الديلمي حتى نزل حياله وهو بلا زاد، وقد ذبح جماله وجاع أصحابه ومنع مع ذلك من الماء، وكان المعروف بابن أبي علي اللص قد صار في جملة الديلمي.

وجمع أبو جعفر أموالًا فحملها إلى الأمير توزون، فقويت بها نفوس أصحابه، وأثبت جماعة من العيارين فأنفذهم في الماء، ليرموا بالمقاليع، فكانوا يعطعطون بالديلم ويمنعونهم مع إقبال من الماء، حتى هلكوا جوعًا وعطشًا، وعلم الأمير بما هم فيه من ذلك.

وأمر أبا الدفين الأعرابي أن يعبر إليهم، وعبر جماعة من الأكراد ومتسرعة من قواد الأمير توزون وغلمانه، فولى الديالم هاربين في الساعة الخامسة من يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

واستأمن إلى الأمير جماعة من وجوه الديلم وقوادهم، وظفر بجماعة منهم، وأخذ فيمن أخذ ابن قرابة العطار، فأمر الأمير توزون فيه بأمر عظيم، فتكلم فيه الحر الجليل أبو جعفر حتى تخلصه، وكان تخلص ابنه قبل ذلك؛ لأنهم ذكروا أنه وجد له كتاب إلى أبيه فيه ما لا يجوز، فأمر الأمير بقتله حتى استنقذه أبو جعفر.

ولما اشتد أمر الديالم وظن الناس أن الأمر أهم انتدب جماعة وعزموا على الفتك بأبي جعفر في داره والوثوب ببغداد، ليبادر جيش الأمير إلى منازلهم فيكون هزيمة ويركبهم الديالم.

واتصل خبرهم بأبي جعفر، فوجه بمن قبض على من وجد منهم وأحضر أبو العباس بن عبد الرحمن بن جعفر الخياط، والمعروف بابن أبي الرديني وطلب يمن البري فلم يوجد.

وهرب جماعة ذكروا في هذا الأمر، فوخ أبو جعفر ابن الخياط وذكره إحسانه إليه وأنكر أنه فعل ذلك، فأمر بحبسهم بعد أن صح عنده أمرهم، فحلم ولم يسلمهم فيقتلوا، وكان هذا من فضله وتوقيه.

وكان ظفره بهؤلاء علامة للإقبال؛ لأنه أخذهم لليلتين خلتا من ذي الحجة، وهزم الديلمي بعد يومين.

ولقد اجتمعت على أبي جعفر في هذا الوقت أمور، لو اجتمعت على أوسع الناس صدرًا وأشدهم بأسًا وأكملهم شجاعة لبعل بها، ولم يتسع للفكر فيها، وكان يلجأ إلى هرب واستتار، فصبر على ذلك كله واضطلع به، حتى بلغه الله ما أراده وأظفره ببغيته.

منها مجيء الديلم إلى قرب بغداد في الجيش الذي لا يقام لمثله، ومعه كتب يقرأها على الناس بمكاتبة المتقي لله له يأمره بقصد بغداد، وذلك ما لا يكذب به أحد ممن سمعه لهرب الخليفة، وما أظهره من عداوته للأمير.

فمنها علة الأمير توزون، التي اشتدت في هذا الوقت، فما خرج عن بغداد إلا وهو عليل رقيد.

ومنها قلة المال، وأنه لا يرجع إلى شيء معد، ولا يقدر على استسلاف من التجار على شيء يرد، ولا مطالبة للمستظهرين منهم بقرض، لئلا تنفر عامة البلد مع حاجته إلى تسكينهم وإلى الرفق بهم.

ومنها مجيء القرامطة إلى الكوفة يطالبون بمائة وخمسين ألف دينار، وورد المكنى بأبي دلف بغداد مستحثًا لذلك.

ومنها شذوذ الخليفة وتباعده إلى الرقة، يوري الناس أن توزون قد عصاه، وأراد إتلافه فهرب منه، وأن الترجمان يهتف بذلك ويجاهر به ويكاتب الناس من أهل الشرق والغرب بمعونة الخليفة وإغاثته واستنقاذه.

ومنها أن ناحية ناصر الدولة التي كانت مغوثة بالأموال الموكفة والأقوات الواردة قد أفسدها الخليفة ومن معه، فانقطعت مواردها وغلت الأسعار بها ويئس الجند منها: إلى أشياء بعد هذا لعله لا يجوز ذكرها.

فصبر أبو جعفر على هذا كله، حتى كشفه الله لمناصحته، ويمن تدبيره.

ومن أعجب العجب أن قومًا يظنون أنهم يقومون مقامه ويغنون غناءه، وأن أعداءه يرجفون به ويحتالون المعايب له. وقد نسوا ما كان منه وما كان يعانيه ويقاسيه في هذا الوقت من [الأ]مور والملابس بها. والله الذي لا إله إلا هو إنه بالرحمة له منها أولى من الاغتباط بها له ولا تعمل إلا على أن واحدًا قام مقامه وفعل فعله، من أين يملك مثل طبعه حتى يجلس سائر نهاره وأكثر ليله، لا يأكل ولا يشرب ولا يتشاغل بشيء من جميع الملاذ التي لا يصبر الناس عن شيء واحد منها، ولا يحجب واحد عنه، ولا ينصرف ذو حاجة أتاه إلا راضيًا إما بقضائها وإما بوعد فيها يقنع به، وإما بولاية يرى نفعها على ما أمله من حاجته وملتمسه، أو تعويض له من ماله، بصدر رحب ووجه طلق وخلق واسع، لا يقدر المتخلق على مثله.

وسل أين من كتب لبجكم وهو في أدنى أمره فبلغ به أعلاه فربي الصغير بمعرفته، وتكهل الشاب بخدمته، وشاخ الكهل ولا يعرف غيره. فهو لجماعتهم كالوالد الحدب وكلهم له هايب صائع.

ومن أين يوجد رجل ما كتب لأحد قط واتصل به إلا علت مرتبته، وزادت حالته وطغى يساره، ثم يكون مفارقته له فيه سبب حتفه وسقوط حاله.

هذا ابن الخال هارون، ما زالت حالته متوسطة إلى أن كتب له فبلغ به أقصى ما يبلغه مثله، إلى أن تغير له وفارقه، فساق نفسه إلى حينه.

ولقد حدثني بعض أسبابه أن كتاب أبي جعفر نفذ إليه مطلقًا بالرأي عليه

بأن يقبل ما كاتبه به الراضي بالله، ويرجع ويتركه، حتى يسعى له فيما يريد على رفق وتأيد، فخالف وبادر.

وهذا الأمير بجكم ما زال وهو يكتب له مصحح البدن بآمن الحال موفر الأصحاب، ما قتل أحدًا من أتباعه، ولا أنكر شيئًا من أمره، حتى قبض عليه وصادره، واستكتب غيره. ففسدت عليه حاشيته، وقتل جماعة منهم، وتندم على ذلك، وحالفه سقم في جسمه، فوالله ما قتل إلا وهو مستسقم فاسد المزاج.

ولقد كنت أقول لسنان بن ثابت: ما ترى لون الأمير واستحالته والغلظ الذي يشكوه في جوفه؟ فيقول لي: لعله يصلح إذا احتمى، قول آيس منه، فما عمره بعد مفارقته له مع تنغص عيشه إلا مديدة.

وهذا الأمير المظفر أبو الوفاء توزون، ما كان أصحابه قبل أن يكتب له يفي عدتهم بثلثي عدتهم في هذا الوقت، ولا نفقاته تفي بنصف بعضه في هذا الوقت، فهو بركة عليه في نفسه وجيشه واتساع نفقاته.

والله يعلم أن ما تحريت بقولي هذا إلا الحق والمناصحة، ولا يراني الله -في شيء مما أرويه وأؤلفه- أريد صديقًا لصداقته، ولا رئيسًا لإحسانه، ولا أتزيد على عدو لعداوته، ولما أعتقده من بغضه، ومن لزم الحق سلم في عاجله وآجله، وكان الله ولي توفيقه.